على طريق التربية

تربية الأبناء في وصايا الآباء

(وصايا الأنبياء والحكماء والخلفاء و الأدباء)

قديماً و حديثاً



أحمد حسن الخميسي

ناشرون

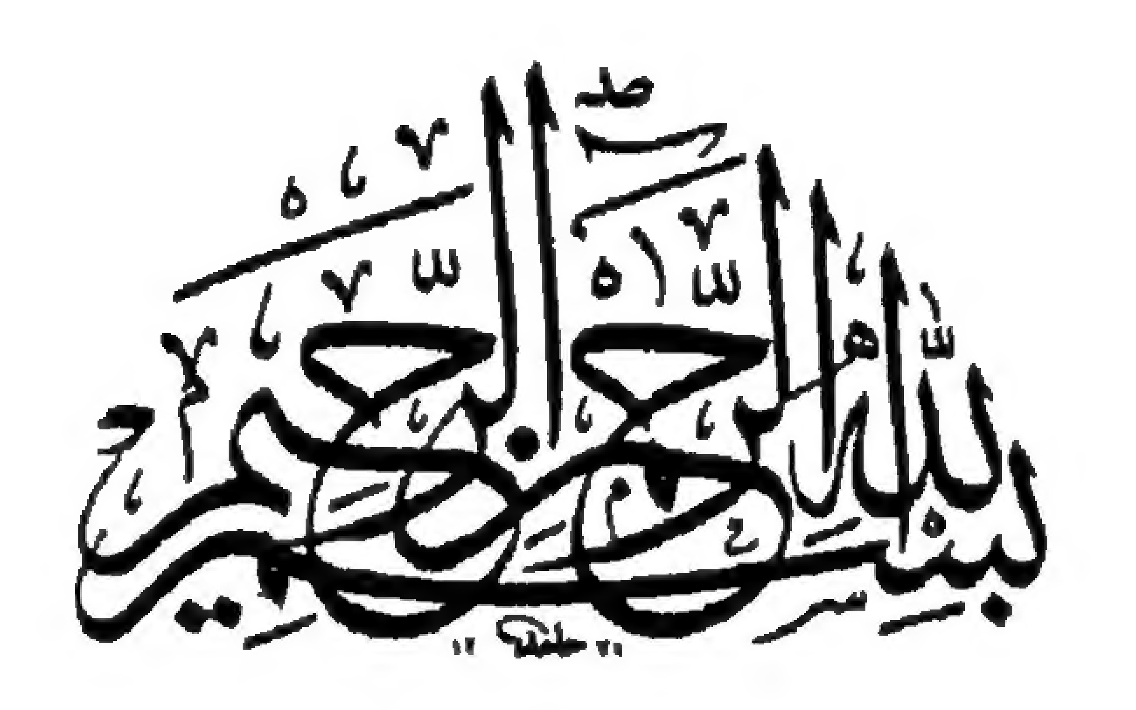
دار الرفاعي للنشر

دار القلم العربي

تربية الأبناء في وصايا الآباء

(وصايا الأنبياء والحكماء والخلفاء والأدباء)

.قديماً وحديثاً.



على طريق التربية

تربية الأبناء في وصايا الآباء

(وصايا الأنبياء والحكماء والخلفاء والأدباء)

ـ قديماً وحديثاً ـ

أحمد حسن الخميسي

دار الرفاعي للنشر

دار القلم العربي

تربية الأبناء في وصايا الآباء

(وصايا الأنبياء والحكماء والخلفاء والأدباء)

ـ قديماً وحديثاً ـ

تأليف : أحمد حسن الخميسي

دار النشر : دار القلم العربي - دار الرفاعي للنشر

الطبعة الثانية جديدة ومنقحة

2007 - 1428

دار الرفاعي - سوريا - حلب

هاتف : 00963 21 2122599

ص .ب :78

دار القلم العربي - سوريا - حلب

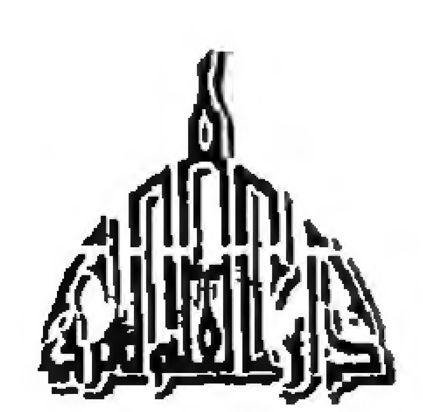
هاتف : 00963 21 2113129

فاكس : 00963 21 2212361

ص.ب : 78

e-MAIL :qalamrab@scs-net.org





الإهداء

إلى ثمرات فؤادي

الحسن والحسين

ومحمد وعبد الرحمن

وإلى تلاميذي الذين صاروا شباباً

وإلى أبناء أمتي

أقدم هذا الزاد من الوصايا

التربوية القيمة

المقدمة

الولد ذخر أبيه، ونتاج عمره، وامتداد ذكره، وزينة حياته، وأعز ما عنده، وأقرب الناس إليه نسباً وروحاً وفكراً.

وإذا كانت الحياة شجرة، فإن ثمارها ـ بلا شك ـ البنون، فما أسعد هذه الشجرة إذا آتت أكلها طيباً، وما أشقاها إن آتتِ ثماراً فجة مرة.

يشعر الآباء عندما يرزقون بالبنين بالبهجة والفرحة، ويحسون بالسعادة الغامرة عندما ينتشر الأطفال في أنحاء المنزل يتقافزون، ويملؤونه زقزقة وتغريداً.

ويرى الآباء من الواجب عليهم أن يربوا أزهارهم تربية صالحة، تجعلهم أبناء بَرَرَة، يكونون لربهم طائعين وللناس محسنين، وللحياة ـ بالخير ـ مُعَمِّرين.

فيتوجهون إليهم بالنصح والإرشاد، ويقدمون إليهم الوصايا التي هي عصارة أفكارهم، وثمرة قلوبهم، ونتاج خبرتهم وتجاربهم، وهي كنز ثمين فيه من المعاني الشيء الكثير.

ولن تجد أصدق وأنقى منها، لأنها وصايا الآباء إلى الأبناء.

وقد سُجلت هذه الوصايا في ثنايا الكتب عبر القرون، وجُمع بعضها في كتاب مستقل.

ولكي يطلع عليها أبنائي وطلابي وأبناء أمتي، ويغرفوا من بحرها المعاني النبيلة والقيم السامية، أعددت هذا الكتاب الذي قسمته إلى مقدمة وخمسة فصول:

❖ ـ **الفصل الأول**: تضمن دراسة عن معاني الوصية ومواضيعها وأساليبها والقيم التربوية فيها.

❖ ـ **الفصل الثاني**: تضمن وصايا الأنبياء والحكماء.

❖ ـ **الفصل الثالث**: تضمن وصايا الخلفاء والأمراء.

❖ ـ **الفصل الرابع** : تضمن وصايا العلماء والأدباء.

❖ ـ **الفصل الخامس**: تضمن وصايا العلماء والأدباء والكتاب والمربين (المعاصرين).

وأثبت في نهاية الكتاب المصادر والمراجع التي نهلت منها الوصايا وما يتعلق بها.

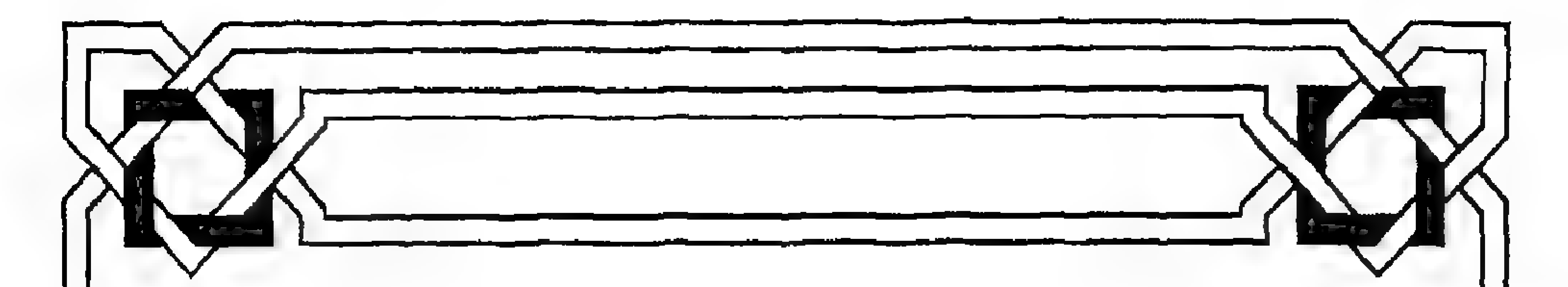
وإذا كنت قد بَيَّنْتُ في الفصل الأول معالم من (القيم التربوية في وصايا الآباء) فإن القارئ بإمكانه استنتاج قيم أخرى كثيرة، فإن الوصايا غزيرة المعاني عميقة الدلالة، لأنها صادرة عن آباء كان لهم شأن كبير في القيادة والسياسة والعلم والفكر والأدب والتربية.

فطوبى لمن قرأ وفهم، وعمل بما علم، فأسعد والديه وسلم...

والحمد لله رب العالمين

أحمد حسن الخميسي





الفصل الأول

❖ ـ الوصية . . . معانٍ ومفاهيم .

❖ ـ جهة الوصية .

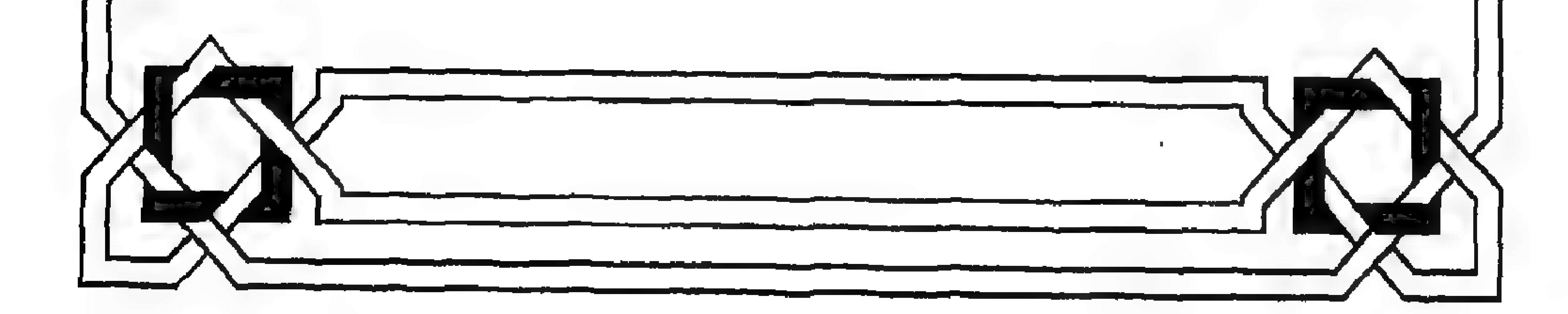
❖ ـ مصادر الوصايا .

❖ ـ صفات وصايا الآباء .

❖ ـ موضوعات الوصايا .

❖ ـ أساليب صياغة الوصايا .

❖ ـ القيم التربوية في وصايا الآباء .



الوصية... معان ومفاهيم

الوصية: هي ما يوصَى به، وأوصى فلان فلاناً بالشيء: أي أمره به وفرضه عليه، وتبدو الوصية كأنها كلام يوصل من إنسان لآخر.

والوصية إما أن توصي بشيء مادي أو بشيء معنوي، أما الوصية المادية: فهي غالباً ما تكون عند الوفاة أو قبلها، ليعمل بما فيها بعد انتقال الموصي إلى الدار الآخرة، فهي إذن توزيع تركة المتوفَّى بناء على نَصِّها وفق الشروط التي نَصَّت عليها.

أما الوصية المعنوية: فهي تتضمن أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو سعياً نحو الأفضل في ميادين الحياة أو دعوة إلى البذل والتضحية في سبيل غال يخص الإنسان كالحفاظ على مبدأ أو أرض أو عرض... الخ. إنها رسالة توجه من المُرْسِل إلى المُرْسَل إليه ليعمل الثاني بما فيها إن عاجلاً أو آجلاً.

الهدف من الوصية تحقيق فائدة مرجوة مادية أو معنوية.

إن الوصية تعد تذكرة للعاقل وتنبيهاً للغافل والجاهل، وهي منجم غني بكنوز الحكم والمواعظ، سكب فيها الموصون عصارة تجاربهم وأفكارهم وقدموها لمن يحبون.

◆ جهة الوصية:

تكون الوصايا ـ على الأغلب ـ من كبار السن، وخاصة العلماء والأدباء والحكماء الذين حنكتهم التجارب[1]، وبدؤوا يشعرون بدنو الأجل، وتكون الوصية من العالم إلى الجاهل أو إلى من هو أقل منه علماً، ومن المعلم إلى الطالب، ومن الكبير إلى الصغير، ومن الوالدين إلى أبنائهم، ومن صاحب الشأن إلى الأقل منه شأناً وهكذا.

---

(١) حنكته التجارب: أحكمته وهذبته.

◆ مصادر الوصايا:

لقد حفلت الكتب منذ القديم بهذه الوصايا كوصايا الأنبياء والحكماء والمصلحين والعلماء والأدباء والقادة والزعماء، وكان أبرز هذه الوصايا جميعاً: وصايا هؤلاء جميعاً لأبنائهم وفلذات أكبادهم، وهي موضوع كِتَابِنَا هذا.

ومصادر الوصايا عديدة منها الكتب السماوية، والشعر العربي، وكتب الأدب العربي[1]، وأُعِدَّت بعض الكتب جُمعت فيها الوصايا [2]، وأُلِّفت كتب أخرى درستها من الناحية الموضوعية والفنية [3]، بالإضافة إلى عشرات المقالات التي وقفت عند الوصايا تاريخاً وتطوراً وشكلاً ومضموناً [4].

هذا عن الوصايا بشكل عام أما عن وصايا الآباء للأبناء، فقد تناثرت في المصادر السابقة، وجَمعْتُ الكثيرَ منها في صفحات كتابي هذا، ومجموعة من الوصايا صدرت في كتب نذكر أسماء معظمها مرتبة ترتيباً زمنياً:

١ـ النصيحة الولدية: تأليف أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي.

٢ـ لفتة الكبد في نصيحة الولد: لابن الجوزي عبد الرحمن بن علي.

٣ـ إنباء الأبناء بأطيب الأنباء. لشهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي.

٤ـ وصايا إسماعيل مظهر إلى ولده «جلال».

٥ـ وصايا جرجي زيدان إلى ولده «إميل».

٦ـ من والد إلى ولده. لأحمد حافظ عوض.

٧ـ إلى ولدي. لأحمد أمين.

---

(١) عشرون كتاباً تقريباً أفردت في صفحاتها أبواباً للوصايا، مثل كتاب (بلوغ الأدب) لشكري الآلوسي، وكتاب (محاضرات الأدباء) للأصفهاني، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ.

(٢) (وصايا ملوك العرب) يحيى بن الوشاء ـ (جمهرة وصايا العرب) محمد بن نايف الديلمي ـ (المعمرون والوصايا) حاتم السجستاني ـ (أروع ما قيل في الوصايا) إميل ناصيف.

(٣) وصايا الآباء للأولاد في النثر العربي (جمعاً وتوثيقاً ودراسة) تأليف: عبد العزيز عبد الله المقبل. رسالة جامعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٤) انظر الفيصل العدد ٢١٥ ـ ٢١٩ المجلة العربية: العدد ٣٤٤ ـ العربي: العدد ٢٠٠ ـ ٢٠٥.

٨ـ وصايا الدكتور محمد حسين هيكل إلى ولده «أحمد».

٩ـ وصايا شكري شعشاعه إلى ولده «نزار».

١٠ـ رسائل إلى ولدي خالد. للبدوي الملثم (يعقوب العودات).

١١ـ رسائل الآباء إلى الأولاد في الأدبين العربي والغربي. إيفان جونس.

١٢ـ رسائل إلى ولدي (منازل الأحلام الجميلة) عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري.

١٣ـ مشاعر أب في رسائل حرَّى. د.إبراهيم بن مبارك الجوير.

أوردنا في كتابنا هذا معظم الوصايا من المصادر والمراجع من القديم والحديث واخترنا من الكتب السابقة بعض الوصايا، وهذا ما ستجده لاحقاً.

ومن الملاحظ أن أصحاب الوصايا كانوا من مراتب متباينة، فقد صدرت من أنبياء مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومن حكماء مثل: لقمان الحكيم، ومن خلفاء مثل: عمر وعلي رضي الله عنهما، ومن أمراء مثل: أحمد بن طولون، ومن علماء مثل: ابن الجوزي، ومن كتّاب وأدباء مثل: أحمد أمين وعبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، وصحفيين وسياسيين مثل: أحمد حافظ عوض، ومربين مثل: د. فاخر عاقل مما يدل على أن الآباء ـ مهما كان منصبهم ـ مهتمون بتربية أبنائهم ومستقبلهم.



صِفَاتُ وصايا الآباء

لو تَمَعَنَّا في هذه الوصايا القيّمة لوجدناها جاءت نتيجة علم وخبرة وتجربة خلال سنوات عاشها الأب، وهذا ما يكسبها غِنَىً وفائدة، وقد صرح بعضهم في وصيته عن ذلك. قال أكثم بن صيفي: «يا بني قد أتت علي مئتا سنة، وإني مزودكم من نفسي: عليكم بالبِرِّ فإنه ينمِّي العدد، وكفوا ألسنتكم...» [1].

ولما احتضر ذو الأصبع العدواني، دعا ابنه أسيداً فقال له: «يا بني إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته، بلغت في قومك ما بلغته، فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك، يحبوك، وتواضع لهم، يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك...» [2].

وأكد الآباء على الأبناء أن يستمعوا للنصيحة، ويحفظوها، ويعملوا بمقتضاها، لأن الأب يعتبر أفضل ناصح للأبناء.

قال قيس بن عاصم لبنيه عندما حضرته الوفاة: «يا بني احفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني...» وقال أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي آمراً ابنيه بالاستماع لنصيحته والعمل بها: «وأقل ما يوجب ذلك عليكما أن تصيخا إلى قولي، وتتعظا بوعظي، وتتفهما إرشادي ونصحي، وتتيقنا أني لم أنهكما عن خير، ولا أمرتكما بشر، وتسلكا السبيل التي نهجتها، وتتمثلا الحال التي مثلتها» [3].

وإننا نجد من خلال وصايا الآباء إصراراً منهم على أن يمتثل الأبناء لما جاء في الوصايا من توجيهات ويعملوا بها، ولعل ذلك الإصرار آت من أن معظم الوصايا نابعة من تعاليم القرآن والسنة التي يتوجب على المسلم اتباعها وتطبيقها،

---

(١) المعمرون والوصايا ص ١٤، ومجمع الأمثال ٢/ ٣٦٥.

(٢) جواهر الأدب. السيد أحمد الهاشمي ج١ ص ١٨٣.

(٣) البيان والتبيين. الجاحظ ٢/ ٨٠.

كما أن الآباء قديماً كان لهم مكانة وهيبة تحتم على الأبناء أن لا يخرجوا عن طاعتهم.

ولكن الآباء في القرن الأخير، لم يلزموا أبناءهم بوصاياهم، بل تركوا لهم الحرية ليقبسوا منها ما يشاؤون، ويستنيروا بها، ويستفيدوا بما فيها من قيم، لاسيما في بداية شبابهم، فالكاتب والصحفي أحمد حافظ عوض يدعو ابنه أن يجمع بين نصح الأب وخبرته ورأيه الذي يراه مناسباً، فيقول «هذه الرسائل التي أضعها لك، إنما أردت بها أن تكون أمام عينك تهديك في صحراء هذه الحياة إلى ساحل السلامة، فإذا لاح لك أن تتحول عنها قليلاً في وقت من الأوقات، فلا تبتعد عنها، بل سر يميناً أو يساراً، ولكن ارجع بأسرع ما يمكن إلى الطريق الذي رسمته لك»[1].

أما المربي الدكتور فاخر عاقل فقد ترك لابنه مساحة أكبر من الحرية في الأخذ بالوصايا والانتقاء منها. فقال في ختام رسالته لابنه: «وإني لأعلم علم اليقين أن حياتك ملكك، وأنك أنت الذي ستحياها وبطريقتك، ولذلك فما أردت قط أن أفرض عليك مفاهيمي وطريقة تفكيري، ونمط حياتي ـ معاذ الله ـ ولكني أعتقد أن من واجبي أن أضع خبرتي تحت تصرفك، وأن أنفض بين يديك آرائي ونظراتي، فانظر فيها، وأعمل عقلك وانتق لنفسك ما يتسق مع تفكيرك أنت وطريقتك الخاصة في الحياة...»[2].

إن الوصية هدية ومنحة من الآباء للأبناء. قالت أعرابية في وصية لابنها: «أي بني، اجلس أمنحك وصيتي، وبالله توفيقك، فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك»[3].

وتخرج الوصية من قلب الأب تحمل الكثير من الحنان الأبوي الفياض، وقد عبر عن ذلك التويجري بقوله: «أيمكن لي وأنا أسجل لكم هنا وثيقة ليست من

---

(١) من والد إلى ولده. أحمد حافظ عوض ١٢.

(٢) الطفل العربي والمستقبل. د. عاقل ص ٨١.

(٣) زهر الآداب. إبراهيم بن علي الحصري ٢/ ١٠٠.

ترف الكلام ولكنها حشاشة نفسي تمشي إليكم في وله أم الفطيم على صغيرها، أقول: أيمكن لي أن أصوغ لكم من عواطفي وتجربتي وتفكيري ملابس تعطيكم من دفء روحي وخفقات قلبي أرق العواطف وأدق ما يكون التجرد معكم؟»[1].

إن وصايا الآباء درر نفيسة تثقف الأبناء وتهذبهم، فما عليهم إلا الأخذ بها وتحويلها إلى تطبيق عملي وقد ألمح إلى ذلك لسان الدين بن الخطيب في آخر وصيته لأبنائه: «هذه ـ أسعدكم الله ـ وصيتي التي أصدرتها، وتجارتي التي لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم لآليها النفيسة، استكثرتم من بواعث الندم»[2].



موضوعات الوصايا

ولقد ركز الآباء في وصاياهم على قضايا كبيرة رئيسية، وقضايا صغيرة فرعية تناولت الحض على الإيمان والتقوى وطلب العلم والتمسك بالأخلاق وجهاد العدو.

وبشكل عام كانت تسلك سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا حال الوصايا التراثية ـ على الأغلب ـ لأن الطابع الديني يهيمن عليها، وهذا أمر واضح لأن تعاليم الإسلام كانت تصبغ حياة المجتمع لمدة قرون بعد بعثة الرسول الكريم ﷺ.

أما الوصايا المعاصرة فموضوعاتها شملت جوانب متشعبة من حياة الإنسان فقد دار بعضها حول هوايات الإنسان واهتماماته النفسية والجسدية وصحته وثقافته

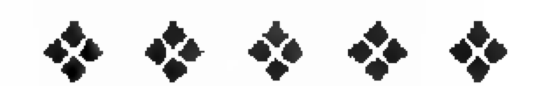
---

(١) منازل الأحلام الجميلة ص ٢١.

(٢) الوصايا الخالدة. عبد البديع صقر. ط١ ـ قطر ـ ١٣٨٦هـ ص ٢٢٩.

وحبه لوطنه، وإعداده فكرياً وتربوياً ليحقق مستقبله المنشود في الدنيا قبل الآخرة، بينما كانت الوصايا القديمة تدعو لجعل الدنيا سلماً لسعادة الآخرة.

وسنجد هذا وذاك إذا ما قرأنا الوصايا الأبوية التي جمعناها في صفحات هذا الكتاب.



أساليب صياغة الوصايا

❖ إن الناظر في الوصايا، يجدها صيغت بأسلوب الأمر والنهي: افعل أو لا تفعل بنسبة كبيرة لاسيما في وصايا الحكماء والخلفاء والأمراء، أما وصايا العلماء والأدباء، فقد تأخذ شكلاً أدبياً غير مباشر كالإقناع والحوار وسرد المذكرات وضرب الأمثال والقصص وأبيات الشعر.

ومن الوصايا الآمرة الناهية وصايا لقمان في القرآن الكريم: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: الآية ١٧]. وهذا النوع قد تميز بقصر الجملة وتكثيف العبارة، وبعض الوصايا اعتمد على أسلوب الشرط، فإن وجد فعل الشرط، فلابد أن يوجد جوابه، ليبيِّن للفاعل خير ما يفعله أو شر ما يفعله، وقد اشتهر بهذه الوصايا الإمام علي رضي الله عنه والإمام أبو جعفر الصادق. ففي وصايا الإمام علي: «من سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه انكشفت عورات بيته»[1]. وهكذا إلى آخر وصيته، كذلك وصايا الإمام جعفر الصادق: «يا بني من رضي بما قسم له استغنى، ومن مد عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً»[2]. ومعظم الوصايا يفسر الأمر والنهي أو يبيّن لهما نتيجة الفعل.

---

(١) أسرار البلاغة. للعاملي ص ٣٤٢ على هامش كتاب المخلاة للمؤلف نفسه.

(٢) حلية الأولياء ٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

قال لقمان الحكيم: «يا بني بع دنياك بآخرتك، تربحهما معاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً».

ووعظ عروة بن الزبير بنيه فقال: «تعلموا العلم، فإنكم إن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين» [1].

❖ وقد تضمنت وصايا العلماء أكثر من غيرها آيات قرآنية وأحاديث، وتضمنت وصايا الحكماء والأدباء أمثالاً عربية وأبياتاً من الشعر مع تفاوت بين هذه وتلك.

فمن الوصايا التي تضمنت آيات قرآنية، وصايا لسان الدين بن الخطيب، ووصايا الإمام ابن الجوزي، والشيخ ملا رمضان البوطي وغيرهم من العلماء.

ومن الوصايا التي تضمنت أمثالاً عربية وصية أكثم بن صيفي التي ورد فيها بضعة عشر مثلاً.

❖ ومنها ما تضمن سيرة الأب فقد حدّث كل من ابن الجوزي وأحمد حافظ عوض والبدوي الملثم ابنه عن سيرته لتكون أنموذجاً يحتذيه الابن، وجاءت وصية الدكتور فاخر عاقل مليئة بالحوار الهادئ ووسائل الإقناع والدعوة الواضحة.

ومن الوصايا التي جاءت غير مباشرة، وصية الكاتب عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري.

❖ إن وصايا الآباء جلّها كان مضمخاً بالمحبة والرضا وإرادة الخير للأبناء، إلا أننا عثرنا على بعض الوصايا التي تحمل امتعاضاً من الوالد، وعدم الرضا لما يصنعه الولد، وهذا واضح في وصية أحمد بن طولون لابنه لأنه عصا أمره وتصرف على هواه، وفي وصية الأعرابي لابنه عندما سمعه يكذب، ووصية معاوية لابنه يزيد.

إن الآباء ـ طوال حياتهم ـ يحرصون على إسداء النصح وتقديمه لأبنائهم في جميع مناحي الحياة، ووردت وصايا جامعة أكثر من غيرها للقيم والمفاهيم، مثل:

---

(١) البيان والتبيين. الجاحظ ٢/ ٢٠٢.

وصية الإمام ابن الجوزي، ووصية الشيخ ملاّ رمضان البوطي، ووصية الدكتور فاخر عاقل فقد كانت هذه الوصايا ترشد الابن إلى الخير والصلاح، وتحذره من الشر والفساد وتدله على الطريق القويمة التي يجب أن يسلكها في الحياة.

❖ إن الوصايا منها القصير الذي لا يتجاوز بضعة أسطر، ومنها الطويل الذي جُمع في كتاب.

❖ وكانت تبدأ الوصايا عادة بالخطاب وتنتهي بالدعاء، ومن صيغ النداء الخطابي العبارات المحببة: بني، يا بني، أي بني، بني الحبيب، إيه بني...، ولدي العزيز، أيها الولد الحبيب، فلذة الكبد...

ومن الآباء من يذكُر الابن بالاسم مثل الحبيب خالد، وعندما يكون الأب غير راض عن الابن يذكُره باسمه دون نعوت، كما في وصية معاوية عندما خاطب ابنه فقال له: يا يزيد.

وبعد الابتداء كان بعضهم يتحدث عن علاقته الحميمة بينه وبين أولاده وأهمية توجيه الوصية لهم قبل فوات الأوان، كما فعل لسان الدين بن الخطيب.

❖ إن الوصايا الأبوية جاءت نثرية وشعرية، ولكننا اقتصرنا على جمع الوصايا النثرية التي جاءت معبرة عن العصر الذي كتبت فيه، ففي العصر الجاهلي وصدر العصر الإسلامي، سادت مقولة: «البلاغة الإيجاز» لذلك نجد الوصايا قصيرة الجملة قوية الإيقاع، وفي عصر لسان الدين بن الخطيب كان السجع سائداً في الكتابة، لذلك نلاحظ وصاياه جاءت مسجوعة منتقاة لا تخلو من التكلف والصنعة مع جودة في سبك العبارة وانتقائها.

وعندما تحرر النثر العربي في عصر النهضة من الإيجاز والسجع، جاءت الوصايا مسترسلة فيها إقناع وحوار وتفسير وذكْر أمثلة من الواقع المعاش.

❖ وأما عن إيصال الوصايا، فقد كانت مشافهة بين الأب والابن، ثم تنقل وتسجل في الكتب، أو يكتبها الوالد على شكل وصية تبقى بعده للأولاد أو يرسلها على شكل خطاب إلى ابنه إذا كان الابن بعيداً عن أبيه، وكثر هذا في عصر النهضة

العربية، إذ رأينا العديد من الأدباء والكتاب، يرسلون رسائل إلى أبنائهم الذين يدرسون في جامعات عالمية يوجهونهم فيها.

هذه الرسائل والوصايا كتبت بمبادرة من الأب إظهاراً لحرصه على أبنائه أو بناء على طلب من الابن، كما حدث مع الدكتور فاخر عاقل الذي طلب فيها الابن وصية على غرار وصية وجهها أبوه إلى أخته ـ كما سنقرأ في وصيته ـ وجلّ الآباء ـ ولا سيما العلماء والكتّاب ـ كانوا يقصدون من وصاياهم ورسائلهم أن تكون موجهة إلى شباب الأمة من خلال أبنائهم.

ودليل ذلك الرسائل المطبوعة في كتب، ككتاب أحمد أمين «إلى ولدي» وهو رسائل إلى كل الناشئة، لأن مجلة الهلال المصرية طلبت إليه نشر هذه الرسائل على صفحاتها، لتقرأها الأجيال المتعاقبة وتأخذ منها الدروس والعبر، كذلك كتاب «رسائل إلى ولدي خالد» للبدوي الملثم حيث وجهه لابنه خالد وللأجيال، فقد جاء في مقدمة الكتاب: «التحق ولدي «خالد» بالجامعة الأمريكية في بيروت فعنّ لي أن أوجه إليه رسائل هي في الواقع خطاب لكل طالب عربي ـ أياً كانت إقامته...».

ومؤخراً نشر الأستاذ الدكتور إبراهيم بن مبارك الجوير من المملكة العربية السعودية رسائله التي أرسلها إلى ابنه الذي دَرَسَ في الخارج في كتيّبٍ بعنوان (مشاعر أب في رسائل حرّى)[1] لتكون لكل ابن وأخ، يقول في البدء: «اقترحَ عليَّ بعضُ من يحسنون الظن أن أنشر تلك الرسائل، عل هذه التجربة تفيد ابناً (آخر) يمر بالتجربة نفسها».

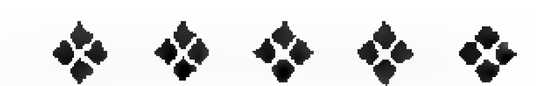
* وقد بُدِئ بتوجيه هذه الوصايا عندما يدخل الابن سن البلوغ أو في سنوات عمره التالية، فالأولاد الصغار قد لا يستوعبون الوصايا المكتوبة. يقول الباجي لولديه: «إنكما لما بلغتما الحد الذي قَرُبَ فيه تعيّن المفروض عليكما، وتوجه التكليف إليكما، وتحققت أنكما قد بلغتما حد من يفهم الوعظ، وتبيين الرشد،

---

(١) مشاعر أب في رسائل حرى. د. إبراهيم بن مبارك الجوير. كتيّب ملحق بالمجلة العربية. الرياض. العدد ٣٥٣، رقم الكتيب (١١٤).

ويصلح للتعلم والعلم، لزمني أن أقدم إليكما وصيتي، وأظهر إليكما نصيحتي»[1].

وقال فاخر عاقل: «وهاأنذا أكتب إليك هذه الرسالة اليوم مادمت قد ودعت أمس العام الثالث عشر من عمرك المديد السعيد ـ إن شاء الله ـ وتهيأت لاستقبال عامك الرابع عشر، إنك الآن تودع طفولتك، وتستعد لاستقبال رجولتك»[2].



القيم التربوية في وصايا الآباء

التربية: هي تنمية القدرات العقلية والنفسية والجسمية لدى الأبناء، وتقوم الأسرة بالدور الأكبر في القيام بهذه العملية، ولاسيما الأب الذي يقوم بتربية الأبناء بشكل مباشر وغير مباشر، ومن الأمور المباشرة التي تربي الأبناء: ١ـ التوجيه والإرشاد ٢ـ القدوة الحسنة ٣ـ تأمين الحاجات. أما الأمور غير المباشرة، كتأمين الأب للأطفال من يكمل لهم العملية التربوية كالمدارس والنوادي، حيث يرسلهم إليها ويدفع لهم ما يلزم من نقود وغيرها، فيتلقون ما يُعلِّمهم ويربيهم وينشئهم تنشئة حسنة، وسنبحث في التوجيه والإرشاد الذي تمثله الوصايا، ونقف عند القيم التربوية فيها.

إن الأب في حياته مع أولاده لا يألو جهداً في توجيه النصح إليهم، كلما رأى الوقت مناسباً، وهو يرى أنهم بحاجة ماسة إلى أن يأخذ بأيديهم في مسالك الحياة، ويرشدهم إلى الأفضل أو يجنبهم مزالق الغواية والشر.

لهذا الغرض قد يخصص ربُّ الأسرة في الأسبوع جلسة أو أكثر مع أفراد أسرته ليتناقش معهم فيما يصلحهم ويرقيهم، ويعينهم على القيام بواجباتهم الدينية

---

(١) النصيحة الولدية ص ١٣.

(٢) الطفل العربي ص ٦٥.

والدنيوية، أو يجمعهم على قراءة القرآن أو ذكر الله تعالى[1].

إن الآباء يرون أن الوصية حق من حقوق الولد، وواجب عليهم أن يقوموا به تجاه أبنائهم في حياتهم وقبل مماتهم، ويدركون أنها مؤثرة وفاعلة لأنها تنبع من القلب الحنون لتقع في القلب البريء الذي يتفتح على بساتين الحياة. يقول الخليفة عمر بن عبد العزيز في بداية وصيته: «أما بعد، فإن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة ـ بعد نفسي ـ أنت»، ويلمسون هذا الحق في القرآن من خلال وصايا لقمان الحكيم لابنه، وما يقرؤونه من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام من مثل قوله: «لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع» رواه الترمذي عن جابر ابن سمرة. وقوله عليه الصلاة والسلام: «أكرموا أولادكم، وأحسنوا أدبهم» رواه ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وتعد الوصية وسيلة من وسائل تأديب الولد بالإضافة إلى كونها حقاً من حقوق الولد. قال عبد الملك بن صالح: «أي بني إني قد اخترت لك الوصية ومحضتك النصيحة، وأديت الحق إلى الله في تأديبك، فلا تغفلن الأخذ بأحسنها والعمل بها والله الموفق» [2] هذه رؤية أمير من الأمراء.

أما ما قاله الأديب البدوي الملثم (يعقوب العودات) عن الوصية فهو يبيِّن أهميتها والهدف منها: «النصائح التي أسديكها هي حصيلة التجارب التي مررت بها خلال سني عمري، وإذا ما وجهت إليك بعض ما يخطر منها في البال، فهدفي تزويدك بالحكمة، وإضاءة طريقك، لتتفادى الجادة الشائكة، ولتسلك السبيل القويم، ولتفرق الخيط الأبيض من الخيط الأسود!»[3].

---

(١) قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (هذا والدي): «كان الجانب المتميز في تربية والدي لأهله وأولاده، أنه يذكرهم بالله في يكل مناسبة، ومنذ عشرات السنوات كان ـ رحمه الله ـ يجمعنا على ورد من ذكر الله صباح كل اثنين وخميس بعد صلاة الفجر» صفحة ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) جمهرة خطب العرب. أحمد زكي صفوت. ج ٣ ص ٩٥.

(٣) رسائل إلى ولدي خالد. ص ٢٢.

فما هي القيم التربوية في هذه الوصايا عبر التاريخ منذ العصر الجاهلي إلى أيامنا هذه.

لقد ركزت هذه الوصايا على قيم كلية كبيرة، وتناولت قيماً فرعية تابعة لها، وحذرت من السيئات والشرور، وأمرت الأولاد ألاَّ يقربوها، ولا يقعوا فيها، ودعت إلى تنمية المواهب والقدرات:

ومن هذه القيم الرئيسة التي دعت إليها الوصايا:

١. **تعميق الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر** لأنهما منطلق العمل المخلص، ومن يقرأ وصايا لسان الدين بن الخطيب، وابن الجوزي، والشيخ ملا رمضان البوطي وغيرهم في هذا الكتاب يجد ذلك جلياً فيها.

وثمة علاقة قوية بين الإيمان والعمل من منظور تربوي يقول المربي الدكتور فاخر عاقل: «وحين أحدثك عن الإيمان أقصد الإيمان بمعناه الواسع العميق، فالذي لا يؤمن لا يعمل، والذي لا يؤمن لا ينجح، والذي لا يؤمن لا يصيب، والإيمان بهذا المعنى يربط بين الإنسان وخالقه وبينه وبين أهله وبينه وبين مجتمعه وبينه وبين الإنسان.

ثم إن الإيمان بهذا المعنى يدفع إلى العمل، ويحفز إلى النجاح، ويحض على الثبات، ويهون المتاعب ويذيب المصاعب.

وأخيراً فإن الإيمان بهذا المعنى يساعد على التسامح ويمكن من التفهم، ويقلل من الزلل» [١].

٢. **تقوى الله:** وتقوى الله تعني الخشية والخوف منه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والمؤمنون في أي زمان ومكان يسعون ليتحققوا بحقيقة التقوى ليفوزوا بالجنة ورضاء الله تعالى.

ويحرص الآباء دائماً على أن يكون أولادهم جادين في طاعة الله تعالى وتقواه، فنسمعهم يوصون أبناءهم:

---

(١) الطفل العربي ص ٧٢.

«أما بعد، فاعلم أن من اتقى الله وقاه، ومن اتكل عليه كفاه، ومن أقرضه ـ فعل خيراً ـ جزاه، ومن شكره زاده، فاجعل التقوى عمار قلبك وجلاء بصرك وبصيرتك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا خير فيمن لا خشية له، ولا جميل لمن لا خلق له»[1].

«يا بني أوصيك بتقوى الله في الغيب والشهادة...»[2].

«إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد والعمل بطاعته في العباد، ويحذرك الحسرة والندامة والفضيحة في القيامة قبل حلول الموت وعاقبة الفوت...»[3].

٣. **العلم والعمل:** بالعلم يحيا الإنسان وبالعمل يحقق ما يصبو إليه، ولا يكون عمل بلا علم، ولا يثمر علم بلا عمل، وقد أكد الآباء لأبنائهم هذه الحقيقة قديماً وحديثاً، وهذه شذرات مما قالوه حول هذه المعاني:

«وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به، فإن الداخلين على الأمراء والمقبلين على أهل الدنيا، قد أعرضوا عن العمل بالعلم فَمُنعوا البركة والنفع به»[4].

«عليكم بالعلم النافع دليلاً بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب والموصل إلى اللباب، والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾»[5].

«العلم سبيل لا يُفضي بصاحبه إلا إلى السعادة، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة. قليله ينفع، وكثيره يعلي ويرفع، كنز يزكو على كل حال، ويكثر

---

(١) الأطفال بهجة الحياة وأمل المستقبل ص ٩٣.

(٢) أسرار البلاغة للعاملي ص ٣٤٢، على هامش كتاب المخلاة للمؤلف نفسه.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/٣٩٢ ـ ٣٩٤.

(٤) لفتة الكبد في نصيحة الولد. ابن الجوزي ص ٥٨.

(٥) نفح الطيب ح٤.

مع الإنفاق، ولا يغصبه غاصب، ولا يخاف عليه سارق ولا محارب فاجتهدا في طلبه، واستعذبا التعب في حفظه والسهر في درسه...»[1].

٤. الحرص على الوقت: بما أن عمر الإنسان: هو وقت يبدأ بولادته وينتهي بموته، لذلك دعا الحكماء والعلماء وغيرهم إلى استثماره والاستفادة منه وملئه بالأعمال المثمرة الخيرة، وعدم تضييعه باللهو والمجون والشهوات، وقد عبر الآباء ـ وخاصة الحكماء والعلماء منهم ـ عن قيمة هذا الوقت والحفاظ عليه ولفتوا نظر أبنائه إلى أهميته، فقدموا لهم النصيحة في هذا المجال، حتى إن ابن الجوزي وضع لابنه برنامجاً يومياً للقيام بواجباته كي لا يضيع وقته سدى[2].

وقال لابنه مبيناً له قيمة الوقت والحرص عليه: «انتبه يا بني لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين مادام في الوقت سعة، واسق غصنك مادامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت، فكفى بها عظة، ذهبت لذة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل»[3].

٥. الأخلاق بين الناس: لقد دعا الآباء أبناءهم إلى مكارم الأخلاق والتمسك بأهدابها، فأوصوا بالتحلي بها، وتمتين العلاقة مع الناس من إخوة وأقارب وجيران وأصدقاء ومعارف، وثمة رابطة قوية بين الأخلاق ومعاملة الناس لأن صاحب الأخلاق والفضيلة لابد أن يكون وذوداً متعاوناً مع الآخرين، يصل رحمه، ويحسن إلى جيرانه، ولا يؤذيهم، ويكرم ضيفه، ويحسن معاملة الآخرين من معلميه وزملائه.

ولقد أكد الموصون لأبنائهم على ضرورة تمسكهم بالأخلاق، وتمتين علاقاتهم مع ذويهم وأصدقائهم.

وهذا ما وجدناه في «النصيحة الولدية» للباجي التي حض فيها ولديه على

---

(١) النصيحة الولدية. سليمان بن خلف الباجي ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) انظر: لفتة الكبد لابن الجوزي ص ٤٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٣٤.

احترام بعضهما وصلة رحمهما وإكرام الجار وحسن معاملة الآخرين[1]، ولا يمكن للتواصل أن يكون قوياً وعميقاً بين الناس إلا إذا كانت الأخلاق ديدنهم، وقد بيّن الدكتور فاخر عاقل ما للأخلاق من أثر على المعاملة فقال: «وما كانت الأخلاق، ولا يمكن أن تكون مجرد قواعد وأوامر وزواجر، وإنما هي قبل كل شيء عقيدة وإيمان ونيَّة وموقف، ولا تفهم من كلامي أبداً أن تستهين بالقواعد والأوامر والنواهي، ولكن افهم أن الأعمال بالنيات، وأن الخطأ في طبيعة الإنسان كالصواب، وأن الخلق الحسن في سلامة النية وحسن الطوية وطيب المعاملة، وقد كنت قد أشرت على أختك بقاعدة تعصمها من الزلل حين قلت لها: لا تفعلي في السر ما تستحين منه في العلن، وعليكَ أشير بقاعدة أخرى تعينك ـ إذا أضفتها إلى سابقتها ـ على التزام الخلق الحسن ألا وهي محاسبة النفس»[2].

وقد حضّ أحمد حافظ عوض ابنه على مودة الناس وإرضائهم: «ولدي العزيز: سترى يا بني في حياتك المقبلة ـ أطال الله أيامك وجعلها هنيئة ـ كثيرين من الناس الذين تقضي ظروف الحياة بمعاشرتهم والالتصاق بهم لأسباب مختلفة، وترى من واجبك ومقتضى مصلحتك أن تحظى برضائهم وميلهم ومحبتهم دون سواهم، أولئك هم الذين يجب عليك أن تبذل منتهى العناية في إرضائهم وكسب مودتهم والظهور عندهم بمظهر الرجل الشريف الكامل، الذي لا غبار عليه من خلق وسلوك، هذا فضلاً عن الثقة بأدبك وعلمك وفضلك والاعتماد على كفاءتك وتفوقك ونبوغك»[3].

٦. النهي عن الدنايا: إن المنكرات والفواحش تزري بالإنسان وتحط من قدره وقيمته، وتورده المهالك، ويعذب عليها في نار الضمير قبل نار السعير، ولشدة خَوْفِ الآباء على أبنائهم من أن يرتكبوها، حذروهم من الدنايا بشكل عام ومن بعضها بشكل خاص، كمثل قولهم: «يا بني، إياك والكذب، فإنه شهي كلحم

(١) النصحية الولدية ص ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) الطفل العربي والمستقبل ص ٧١.

(٣) من والد إلى ولده. أحمد حافظ عوض ص ١١٨.

العصفور عما قليل يغلي صاحبه»[1].

«زَكِّ نفسك من الرذائل والأمراض القلبية كالغضب والحقد والحسد والعجب والرياء والفخر والحرص على الدنيا والطمع والبخل وحب الجاه»[2].

٧. **الحفاظ على الصحة:** إذا كانت الوصايا امتلأت بالمواعظ والحكم الأخلاقية، فإنها لم تنس جانب الجسد والعناية به ورعايته، لأن القيام بالأعمال كما يجب يتطلب جسماً صحيحاً ونشاطاً ملحوظاً، وهذا ما أكده المربي الدكتور فاخر عاقل لابنه: «صحتك يا بني شرط رئيسي لتحقيق جميع ما حدثتك عنه ودعوتك إليه حتى الآن: المريض يعجز عن تحقيق أهدافه، والعليل قاصر عن العمل وطلب العلم جهد ومشقة والتزام أوامر الأخلاق ونواهيها يكلف الجسد أعباء جساماً، وخدمة الوطن والإنسانية تقتضي الجسم عرقاً وكداً، فاحرص على التمتع بالصحة الجيدة.. احرص على صحتك منذ هذا السن، واعن بها العناية الكافية والمناسبة»[3].

٨. **اختيار المهنة المناسبة:** تدعو قواعد التربية إلى ترك الابن يختار اختصاصه ومهنته بِحرية، بما يناسب ميوله وقدراته، وتدعو كذلك إلى تنمية المواهب وتشجيعها، لذلك يميل المربون في العصر الحاضر إلى ترك الابن يختار ما يريد بِحرية، ورأى بعضهم أن لا تكون هذه الحرية مطلقة بل عليه أن يستفيد من رأي أبيه لأنه أكثر خبرة منه...

يقول أحمد حافظ عوض حول هذه النقطة: «إنني أعلم أنك في اختيارك لمهنتك ستكون مسوقاً بدافع ميلك العقلي، أو لتفوقك في فن من الفنون، ولكن هذا الميل والتفوق الوقتي لا يجب أن يقف حائلاً دون الإصغاء إلى رأي أولي الخبرة في الحياة»[4] (ويقصد خبرة أبيه وغيره).

---

(١) لقمان الحكيم.

(٢) هذا والدي. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٨٨.

(٣) الطفل العربي والمستقبل مرجع سابق ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) من والد إلى ولده. أحمد حافظ عوض. ص ١٠٣.

ويقول الدكتور فاخر عاقل لابنه: «ولدي: لو سألتني عن أهم صفة من صفات هذا العصر الذي تعيش فيه لقلت لك غير متردد: إنه عصر العمل... والحق أن العمل هو الطريق لتنمية الشخصية البشرية، وصقل الطبع الإنساني وإبراز المواهب الفردية وتمتيع الإنسان بالسعادة والرضا، فَأَوْلِ عملك المقبل جلّ تفكيرك وجماع عزمك، فكر فيما تحب أن تمتهن، وليكن اختيارك لعملك على أساس من ١ـ قدراتك ٢ـ ميولك ٣ـ قيمة هذا العمل لمجتمعك»[1].

هذه نماذج من القيم التربوية التي دعت إليها (وصايا الآباء) وهناك قيم أخرى يمكنك معرفتها أثناء قراءتك للوصايا جميعها.

لقد تضمنت وصايا الآباء أهدافاً واضحة دعت الأبناء ـ وبإلحاح ـ إلى تحقيقها وهي التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل وشق طرق الحياة على أساس من العلم والعمل وبناءِ حياةٍ خيّرةٍ تكون سُلَّماً للسعادةِ في الدارين.



(١) الطفل العربي والمستقبل. د. فاخر عاقل ص ٦٩.

الفصل الثاني

وصايا الأنبياء والحكماء

- ـ نوح ينادي ابنه (وصية نوح عليه السلام).
- ـ كونوا مسلمين (وصية إبراهيم ويعقوب).
- ـ إن الشيطان للإنسان عدو (وصية يعقوب).
- ـ لا تيأسوا (وصية يعقوب).
- ـ يا بني لا تشرك بالله (وصية لقمان الحكيم).
- ـ من وصايا لقمان لابنه.
- ـ تحرَّ الصدق تسلم (وصية المنذر).
- ـ تواضع لقومك (وصية ذي الأصبع العدواني).
- ـ لا تشاور مشغولاً (وصية قس بن ساعدة).
- ـ إياكم وما يعتذر منه (وصية الأشعث بن قيس الكندي).
- ـ كفوا ألسنتكم (وصية أكثم بن صيفي).
- ـ استقبلوا العدو بوجوهكم (وصية أبجر بن جابر).
- ـ كتب أعرابي لابنه وسمعه يكذب.
- ـ وصية بعض نساء العرب لابنها وقد أراد السفر.

نوح عليه السلام ينادي ابنه... (١)

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٣٦ ـ ٤٨].

---

(١) نوح: من أنبياء الله، دعا قومه للإيمان فما آمن معه إلا قليل، أمره الله بصنع سفينة، فركب بها هو ومن آمن ومَن شاء من المخلوقات، فنجاه الله والمؤمنين من الطوفان وأهلك الكافرين وولده الذي ناداه كنعان (صفوة التفاسير. الشيخ محمد علي الصابوني ج٢. دار القلم العربي بحلب).

كونوا مسلمين...

وصية إبراهيم ويعقوب[1] عليهما السلام

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [2] [البقرة: ١٣٠ - ١٣٣].



(١) إبراهيم الخليل عليه السلام: أبو الأنبياء، ودينه الحنيفية يُعرف بخليل الرحمن، وهو الجد الأعلى للرسول محمد ﷺ، قام هو وابنه إسماعيل برفع قواعد البيت العتيق (الكعبة) في مكة (المعجم العربي الأساسي. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم).
- يعقوب بن إسحاق عليه السلام: نبي ورد اسمه في القرآن، رزقه الله اثني عشر ولداً أشهرهم يوسف عليه السلام (المرجع نفسه).

(٢) وأراد يعقوب أن يطمئن على دين أبنائه وتمسكهم به قبل أن يموت فسألهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. عندها قرت عينه وتأكد من عقيدة أبنائه الذين حرص طول حياته على نصحهم وإرشادهم.

إن الشيطان للإنسان عدو

وصية يعقوب لابنه يوسف[1]

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ[2] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ[3] وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ[4] مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٤ ـ ٦].



لا تيأسوا...

وصية يعقوب إلى أبنائه

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ[5] مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف: ٦٧]

---

(١) يوسف (القرن ١٣ ق.م) نبي ورد ذكره في القرآن، وهو ابن يعقوب، وردت قصته مع إخوته وامرأة العزيز في سورة (يوسف) (المعجم العربي الأساسي. مرجع سابق).

(٢) يجتبيك: يصطفيك ويختارك لأمور عظام.

(٣) تأويل الأحاديث: تعبير الرؤيا.

(٤) على أبويك: على جديك.

(٥) وما أغني عنكم: إن دخولهم كما أمر أبوهم لم يدفع عنهم ما قضاه الله من حزنهم فاتُّهِموا بالسرقة وحُجِزَ أخوهم بمصر.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ[1] مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ[2] إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. [يوسف: ٨٧]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

يا بني لا تشرك بالله

وصايا لقمان الحكيم لابنه في القرآن الكريم[3]

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ[4] لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٢ ـ ١٣].

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ[5] حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ[6] فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ[7] ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ[8]

---

(١) تحسسوا من يوسف: ابحثوا واطلبوا معرفة خبر من أخبار يوسف.

(٢) رَوْح الله: رحمته وفرجه.

(٣) لقمان الحكيم: هو رجل صالح صادق الوجدان حسن التعبير أدرك النبي داود عليه السلام وأخذ عنه.

(٤) يا بني: تصغير إشفاق ومحبة.

(٥) مثقال: ثقل ووزن، وهو وزن أصغر شيء (كناية عن إحاطة علم الله بدقائق الأشياء).

(٦) خردل: حب صغير جداً يضرب به المثل في الصغر.

(٧) عزم الأمور: من الأمور التي يجب الثبات عليها.

(٨) لا تصعر خدك للناس: لا تمل وجهك عنهم تكبراً وإعراضاً.

﴿... لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا[1] إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[2] ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ[3] فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ[4] مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ[5] الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٦ـ ١٩].

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

من وصايا لقمان لابنه[6]

١ـ يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور العلم كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء [7].

٢ـ يا بني جالس العلماء وماشهم، عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

٣ـ يا بني لا تعلم العلم لتباهي به العلماء، وتماري به السفهاء، وترائي به في المجالس [8].

٤ـ يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك [9].

---

(١) مرحاً: فرحاً شديداً مع البطر والخيلاء.

(٢) مختال: متكبر معجب بنفسه ـ فخور: كثير المباهاة والتعاظم بما فيه.

(٣) اقصد: توسط في مشيك بين الإسراع والإبطاء.

(٤) اغضض: اخفض.

(٥) أنكر: أقبح.

(٦) وصايا لقمان ورد بعضها في القرآن الكريم في سورة لقمان، وبعضها الآخر تناقله العلماء والمربون ودونوها بكتبهم، وما اقتبسته هنا هو من كتاب (آباء وأبناء) للدكتور فاروق حمادة. دار القلم دمشق ط١ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧.

(٧) وابل: مطر شديد القطر.

(٨) تباهي: تفاخر ـ تماري: تناظر وتجادل ـ ترائي: تظهر خلاف ما أنت عليه.

(٩) مقت: أبغض أشد البغض.

٥ـ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم، خذ منهم إذا ناولوك[1] والطف بهم في السؤال، ولا تضجرهم.

٦ـ يا بني، اختر المجالس على عينك، فإذا رأيت المجلس يذكر الله ـ عز وجل ـ فيه، فاجلس معهم، فإنك إن تك عالماً ينفعك علمك، وإن تك غبياً يعلموك، وإن يطلع الله ـ عز وجل ـ إليهم برحمة تصبك معهم.

٧ـ يا بني لا تجلس في المجلس الذي لا يذكر فيه الله، إن تك عالماً لا ينفعك علمك، وإن تك عيياً[2] يزيدوك عياً، وإن يطلع الله إليهم بعد ذلك بسخط يصبك معهم.

٨ـ يا بني، لا تتعلم ما لا تعلم حتى تعمل بما تعلم.

٩ـ أي بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها أناس كثير، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك تنجو، ولا أراك ناجياً!.

١٠ـ يا بني، ارجُ الله ـ عز وجل ـ رجاء لا يجرئك على معصيته تعالى، وخف الله تعالى خوفاً لا يؤيسك من رحمته[3].

١١ـ يا بني، إذا جاءك وقت الصلاة، فلا تؤخرها لشيء، صلها واسترح منها فإنها دين.

١٢ـ يا بني، إن العمل لا يستطاع إلا باليقين، ومن يضعف يقينه يضعف عمله.

١٢ـ يا بني، اتق الله، ولا تُرِ الناس أنك تخشى الله ـ عز وجل ـ ليكرموك بذلك، وقلبك فاجر[4].

١٤ـ يا بني، اتخذ طاعة الله تجارة، تأتك الأرباح من غير بضاعة.

---

(١) ناوله الشيء: أعطاه إياه.

(٢) عيي: عاجز عن بيان مراده بالكلام.

(٣) يئس: انقطع أمله.

(٤) فاجر: يرتكب المعاصي.

١٥ـ يا بني، ارجُ الله رجاء[1] لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس بها من رحمته. فقال يا أبتاه، وكيف أستطيع، وإنما لي مكسب واحد.

١٦ـ يا بني، لا تؤخر التوبة[2]، فإن الموت يأتي بغتة.

١٧ـ يا بني، إياك والدَّين، فإنه ذل بالنهار، وهم بالليل[3].

١٨ـ يا بني حملت الجندل[4] والحديد، وكل شيء ثقيل، فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السوء، وذقت المرارة فلم أذق شيئاً هو أمر من الفقر.

١٩ـ يا بني، لا ترسل رسولك جاهلاً، فإن لم تجد حكيماً فكن رسول نفسك[5].

٢٠ـ يا بني، إياك والكذب، فإنه شهي كلحم العصفور عما قليل يغلي صاحبه.

٢١ـ يا بني، احضر الجنائز، ولا تحضر العرس، فإن الجنائز تذكرك الآخرة، والعرس يشهيك الدنيا.

٢٢ـ يا بني، لا تأكل شبعاً على شبع، فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

٢٣ـ يا بني، لا تكن حلواً، فتبلع، ولا تكن مراً فتلفظ.

٢٤ـ يا بني، لا يأكل طعامك إلا الأتقياء، وشاور في أمرك العلماء.

٢٥ـ لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطاً تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.

٢٦ـ يا بني، ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح امرأة صالحة.

---

(١) رجاء: أمل وطلب.

(٢) التوبة: ترك المعصية.

(٣) هم: حزن.

(٤) الجندل: الصخر العظيم.

(٥) حكيم: ذو رأي سديد.

٢٧ـ يا بني، إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سراعاً يذهبون، وإنك قد استدبرت الدنيا، منذ كنت، واستقبلت الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج عنها.

٢٨ـ يا بني، لا تجالس الفجار ولا تماشهم، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم.

٢٩ـ يا بني، سافر بسيفك وخفك وعمامتك وخبائك وسقائك وخيوطك ومخرزك، وتزود معك من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك، وكن لأصحابك موافقاً إلا في معصية الله ـ عز وجل ـ.

٣٠ـ يا بني، إذا سافرت مع قوم فأكثر استشارتهم في أمرك، وأمورهم، وأكثر التبسم في وجوههم، وإذا استعانوا بك فأعنهم، وإذا رأيت أصحابك يمشون فامش معهم، فإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم، واسمع لمن هو أكبر منك سناً...

٣١ـ يا بني، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

٣٢ـ يا بني، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام ـ يعني السلام ـ ثم اجلس ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم [١].

٣٣ـ يا بني، الذهب والفضة يُختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلاء.

٣٤ـ يا بني، قد ذقت المرارة فلم أر شيئاً أمر من الفقر، وحملت الثقيل، فليس شيء أثقل من جار السوء، ولو أن الكلام من فضة لكان الصمت من ذهب.

٣٥ـ يا بني، ما ندمت على الصمت قط، ولو كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب.

٣٦ـ يا بني، إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريبة، فاغلبه باليقين والنصيحة، وإذا جاءك من قبل الكسل والسآمة، فاغلبه بذكر القبر والقيامة، وإذا جاءك من قبل الرغبة والرهبة، فأخبره أن الدنيا مفارقة متروكة[٢].

---

(١) أفاض: توسع.

(٢) الرهبة: الخوف.

٣٧ـ إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة.

٣٨ـ يا بني، إذا كنت تشك في الموت، فلا تنم، فكما أنك تنام كذلك تموت، وإن كنت تشك في البعث، فلا تنتبه، فكما أنك تنتبه بعد نومك، فكذلك تبعث بعد موتك.

٣٩ـ يا بني، اتق المرأة السوء، فإنها تشيبك قبل المشيب، واتق النساء، فإنهن لا يدعون إلى خير، وكن من خيارهن على حذر.

٤٠ـ يا بني، استغن بالكسب الحلال عن الفقر، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خلال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه الثلاث: استخفاف الناس به.

٤١ـ يا بني، أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيداً: ابسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم[1]، واحفظ إخوانك، وصل أقاربك، وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ[2] يريد فسادك، ويروم[3] خداعك، وليكن إخوانك، مَنْ إذا فارقتهم وفارقوك، لم تعبهم ولم يعيبوك.

٤٢ـ يا بني، لا تُذهِبْ ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك، واعرف قدرك، تنفعك معيشتك.

٤٣ـ يا بني، بع دنياك بآخرتك، تربحهما معاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً.

٤٤ـ يا بني، كن عبداً للأخيار[4].

٤٥ـ يا بني، كن أميناً تكن غنياً.

٤٦ـ كن لأصحابك موافقاً من غير معصية.

---

(١) لئيم: دنيء الأصل شحيح النفس عكسه كريم.

(٢) باغٍ: ظالم.

(٣) رام يروم الشيء: طلبه.

(٤) عبداً: مطيعاً.

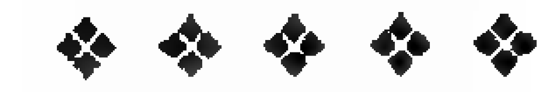
٤٧ـ لا تحقرن من الأمور صغارها، فإن الصغار غداً تصير كباراً.

٤٨ـ إذا أردت غنى الدنيا، فاقطع طمعك[١] مما في أيدي الناس.

٤٩ـ يا بني، أكثر من قول: رب اغفر لي، فإن لله ساعة لا يُرد فيها سائل.

٥٠ـ يا بني، لا تكن أعجز من هذا الديك يصوت بالأسحار، وأنت نائم على فراشك.

٥١ـ يا بني لا ترغب[٢] في ود الجاهل، فيرى أنك ترضى عمله، ولا تهاون[٣] بمقت الحكيم فيزهد فيك.



(١) طمع: حرص.

(٢) رغب يرغب في الشيء: أراده وحرص عليه وطمع فيه.

(٣) تهاون الشخص بالأمر: استخف به.

تحرَّ الصدق تسلم

قال المنذر بن المنذر يوصي ابنه النعمان[1]: إياك واطِّراحَ الإخوان، واطِّرافَ المعرفة[2]، وإياك وملاحاة الملول، وممازحة السفيه، وعليك بطول الخلوة، والإكثار من السّمَر.

والبس من القشر[3] ما يزينك في نفسك ومروءتك، واعلم أن جماع الخير كله الحياء، فعليك به، فتواضع في نفسك وانخدع في مالك[4]، واعلم أن السكوت عن الأمر الذي يعنيك خير من الكلام، فإذا اضطررت إليه فتحرَّ الصدق والإيجاز، تسلم إن شاء الله تعالى..



تواضع لقومك

لما احتضر ذو الأصبع العدواني[5]، دعا ابنه أسيداً فقال له: «يا بني، إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته، فاحفظ عني:

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين (ج٤) ص ٧٣ ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة.

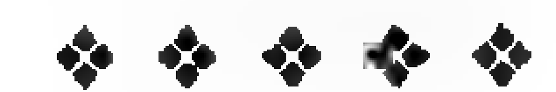
(٢) الاطّراف: يريد به تجديد الإخوان.

(٣) القشرة: كل ملبوس.

(٤) الانخداع: الدخول، يقال انخدع الضب، إذا شم ريح الإنسان فدخل جحره. وانخدع أيضاً أظهر أنه مخدوع وليس به.

(٥) ذو الأصبع العدواني: هو حرثان بن الحارث. خطيب وشاعر وأحد المعمرين في الجاهلية (جواهر الأدب. للهاشمي. ص ١٨٣).

ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء، يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على حبك صغارهم، واسمح بمالك، وأعزز جارك[١]، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ[٢]، فإن لك أجلاً لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتم سؤددك»[٣].



لا تشاور مشغولاً

قال قس بن ساعدة[٤]: يوصي ابنه[٥]:

لا تشاور مشغولاً، وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً، فالهمّ يعقل العقل، فلا يتولد منه رأي، ولا تصدق به رويّةٌ.



---

(١) جارك: المجاور الذي أجرته من أن يظلم.

(٢) الصريخ: صوت المستغيث.

(٣) جواهر الأدب ج١ ص١٨٣. السيد أحمد الهاشمي مراجعة د. يوسف الصميلي ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ٢٠٠٣م.

(٤) هو قس بن ساعدة بن عمرو من بني إياد (... ـ نحو ٢٣ ق.هـ/ نحو ٦٠٠م) أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية كان أسقف نجران (الزركلي: الأعلام ٥/ ١٩٦).

(٥) نهاية الأرب ٦/ ٧٦.

إياكم وما يعتذر منه

قال الأشعث بن قيس الكندي[1] يوصي بنيه[2]:

يا بني، لا تذِلّوا في أعراضكم، وانخدعوا في أموالكم، ولْتَخِفَّ بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم، فإن لكل امرئ تبعة، وإياكم وما يُعْتَذَرُ منه أو يُستَحى، فإنما يُعْتَذَرُ من ذنب، ويُسْتَحى من عيب، وأصلحوا المال لجفوة السلطان، وتغير الزمان، وكفوا عند الحاجة عن المسألة، فإنه كفى بالردِّ مَنْعاً، وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزق قَدَراً.

وامنعوا النساء غير الأكفاء، فإنكم أهل بيت يتأسّى بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم، وكونوا في عوامّ الناس ما لم يضْطَرِبِ الحبلُ، فإذا اضْطَرَبَ الحبل، فالحقوا بعشائركم.



---

(١) الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي (٢٣ ق.هـ/٦٠٠م ـ٤٠ هـ) أمير كندة في الجاهلية والإسلام، وفد على النبي وأسلم، وشهد اليرموك، والكثير من المواقع... (الزركلي: الأعلام ١/٣٣٢).

(٢) العقد الفريد ٣/ ١٥٤.

كفوا ألسنتكم...

قال أكثم بن صيفي[1] يوصي بنيه[2]: يا بني، قد أتت عليَّ مئتا سنة، وإني مزودكم من نفسي: عليكم بالبر فإنه ينمي العدد، وكفوا ألسنتكم، فإن مقتل الرجل بين فكيه، إن قول الحق لم يدع لي صديقاً، وإنه لا ينفع مع الجزع التبكي، ولا مما هو واقع التوقي، وفي طلب المعالي يكون الغرر، الاقتصاد في السعي أبقى للجمال، ومن لا يأسَ على ما فاته ودعَ بدنُه، ومن قنع بما هو فيه قرَّت عينه، التقدم قبل التَّنَدُّمِ ، أَنْ أُصبحَ عند رأس الأمر أحبُّ إليَّ من أن أُصبحَ عند ذنبه، لم يهلك من مالك ما وعظك، ويل لعالم أَمْرٍ من جاهله، الوحشة ذهابُ الأعلام، ويتشابه الأمر إذا أقبل، فإذا أدبر عرفه الأحمق والكَيِّس[3]، البَطر عند الرخاء حُمْقٌ، والجزع عند النازلة آفةُ التَّجمُّل، ولا تغضبوا من اليسيرِ، فإنه يجني الكثير، ولا تجيبوا فيما لا تُسألون عنه، ولا تضحكوا مما لا يُضحك منْهُ، تناءَوْا في الدِّيار، لا تباغضوا، فإنَّ من يجتمعْ يتقعقع عَمَدُهُ، ولقد رأيت جبلاً مطلاً تزايله حجارته، ولقد رأيته أملس ما فيه صدع.

... أحمق الحمق الفجور، وحيلة من لا حيلة له الصبر، إن كنت نافعي فَوَرٌّ عني عينك، إن تعشْ تَرَما لم تَرَ، فقد أقرَّ صامتٌ، المكثار كحاطب ليل، ومن أكثر أسقط، والسَّرْوُ الظاهرُ الرِّياش، لا تبولوا على أكمة[4]، ولا تفشوا سراً إلى أَمَة، من لم يرْجُ إلا ما هو مستوجِبٌ له كان قَمِناً أن يدرك حاجته، لا تمنعنكم مساوئ رجلٍ من ذكرِ مَحَاسِنِه.

---

(١) هو أكثم بن صيفي بن رباح بن الحارث (... ـ ٩هـ/ ٦٣٠م) حكيم العرب في الجاهلية، وعاش زمناً طويلاً (الزركلي: الأعلام ٢/ ٦).

(٢) مجمع الأمثال ٢/ ٦٥م ـ وفي هذه الوصية عدد من الأمثال العربية.

(٣) الكيِّس: الفطن الظريف.

(٤) أكمة: تل صغير.

استقبلوا العدو بوجوهكم

قال أبجر بن جابر[1] لبنيه[2]:

يا بني، إن سَرَّكُمْ طولُ البقاء، وحسنُ الثناء، والنكايةُ في الأعداء، فإذا استقبلتم الخميس[3]، فاستقبلوهم بوجوهكم، وإياكم أن تمنحوهم أكتافكم، فتُطعنوا بالرماح في أدباركم، فإن أَمْثَلَ القوم بقيَّةً الصابرُ عند نزول الحقائق.



كتب أعرابي لابنه وسمعه يكذب

يا بني عجبت من الكذاب المشيد بكذبه، وإنما يدل على عيبه، ويتعرض للعقاب من ربه فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادّة، إن قال حقاً لم يُصدَّق، وإن أراد خيراً لم يوفَّق، فهو الجاني على نفسه بفعاله، والدال على فضيحته بمقاله، فما صحَّ مِنْ صِدْقِهِ نُسِبَ إلى غيره، وما صحَّ من كذبِ غيره نُسِبَ إليه، فهو كما قال الشاعر:

حَسْبُ الكذوب من المهانة بعض ما يُحكى عليه[4]
فإذا سمعت بِكِذْبَةٍ مِنْ غيرِهِ نُسِبَتْ إليه[5]

---

(١) أبجر بن جابر العجليّ، من بني بكر من وائل. كان نصرانياً، وأدرك الإسلام ولم يُسلم، كان ابنه حجار سيد بني بكر.

(٢) المعمرون والوصايا. لأبي حاتم السجستاني ص ١٣٩.

(٣) الخميس: الجيش الضخم.

(٤) المهانة: المذلة.

(٥) نسب: نسبه إلى فلان: عزاه إليه.

وصية بعض نساء العرب

إلى ابنها وقد أراد السفر

قال أبان بن تغلب[1]، شَهِدْتُ أعرابية وهي توصي ولداً لها يريد سفراً، وهي تقول له:

أي بُنيَّ: اجلسْ أمنحْك وصيَّتي، وباللهِ توفيقُك، فإنَّ الوصيةَ أجْدى[2] عليك من كثير عقلك.

قال أبان: فوقفت مستمعاً لكلامها، مستحسناً لوصيتها، فإذا هي تقول:

أي بُنيَّ: إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة[3]، وتفرق يبين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فَتُتَّخَذُ غَرَضاً[4]، وخليقٌ ألا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقلما اعتورت[5] السهام غرضاً إلا كَلَمَتْهُ[6] حتى يهي[7] ما اشتد من قوته، وإياك والجُودَ بدينك، والبخل بمالك، وإذا هززت، فاهزز كريماً، يلِنْ لهزّتك، ولا تهزز اللئيم، فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها.

ومثّل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك، فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه.

وإياك والغدر، فإنه أقبح ما تُعوملَ به، وعليك بالوفاء ففيه النماء، وكن بِمالك جواداً، وبدينك شحيحاً، ومن أعطي السخاء والحِلْم فقد استجاد الحُلَّةَ: رَبطتَها وسِرْبالها! انهض على اسم الله.

---

(١) أبان بن تغلب الربعي الكوفي، كان من النساك الثقات، وكان ممدوحاً بالفصاحة توفي سنة ١٤٠، تهذيب التهذيب. وفي أمالي القالي حيث أورد الوصية (٢/ ٨١٩).

(٢) أجدى: أنفع.

(٣) الضغينة: الحقد.

(٤) غرضاً: هدفاً.

(٥) اعتورت: تداولت وتناوشت.

(٦) كلمته: جرحته.

(٧) يهي: يضعف.

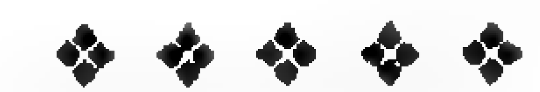
الفصل الثالث

وصايا الخلفاء والأمراء

- ـ عليكم بإصلاح المال (وصية قيس بن عاصم لبنيه).
- ـ المجلس والسلطان (وصية قيس بن عاصم لابنه).
- ـ يا بني.. الذكر نور (وصية الإمام علي لابنه الحسن).
- ـ انتبه للموعظة (وصية معاوية لابنه يزيد).
- ـ أرسل حكيماً ولا توصه (وصية مروان بن الحكم).
- ـ اتقوا زلة اللسان (وصية المهلب لبنيه).
- ـ تجنبْ ارتجال الكلام (وصية ابن هبيرة لابنه).
- ـ كن جواداً (وصية ابن شداد لابنه محمد).
- ـ اذكر فضل الله عليك (وصية الأمير عمر بن عبد العزيز).
- ـ عود نفسك الصبر (وصية أبي جعفر المنصور).
- ـ أكرم نفسك عن كل دنية (وصية عبد الملك بن صالح).
- ـ الزم معالي الأمور (وصية عبد الرحمن الأوسط).
- ـ يا بني اسمع الموعظة (وصية أحمد بن طولون لابنه).

عليكم بإصلاح المال

روي عن الحسن أنه قال: لما حضرت قيس بن عاصم[1] الوفاة دعا بنيه فقال: «يا بني احفظوا عني، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا مت فسوِّدوا كباركم، ولا تسوِّدوا صغاركم فَيُسَفِّه الناسُ كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بإصلاحِ المال، فإنه مَنبهة للكريم، ويُستغنى به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس، فإنها شرُّ كسب المرء»[2].



المجلس والسلطان

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان، فأشار له إلى الوساد فقال له: اجلس فجلس على الأرض، فقال له معاوية: وما منعك يا أحنف من الجلوس على الوساد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال: «لا تَغْشَ السلطان حتى يَمَلَّك، ولا تقطعه حتى ينساك، ولا تجلس له على فِراش ولا وِساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين، فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس منك فتُقامَ له، فيكون في قيامك زيادةٌ له، ونقصانٌ عليك» حسبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين، لعله أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس مني، فقال معاوية: «لقد أُوتيت تَميم الحكمة، مع رِقَّة حواشي الكَلِمِ»[3]...

---

(١) قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي، أبو علي (... نحو٢٠هـ =... نحو ٦٤٠م) أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم. كان شاعراً. اشتهر وساد في الجاهلية، ووفد على النبي ﷺ في وفد تميم (سنة ٩هـ) فأسلم.

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٨٠.

(٣) المرجع نفسه ١/ ٥٣.

يا بُنيَّ.. الذِّكْرُ نورٌ

قال الإمام علي بن أبي طالب[١] رضي الله عنه، يوصي ابنه الحسن[٢]:

يا بني، أوصيك بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في النشاط والكسل، والرضا عن الله عز وجل في الشدة والرخاء.

يا بني، ما شرٌّ بعده الجنة بِشَرٍّ، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية.

اعلم يا بني أنه من عرف عَيْبَ نفسه شُغِل عن عَيْب غيره، ومن رضي بقَسْمِ الله لم يحزن على ما فاته، ومن سلَّ سيف البغي قُتِل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك[٣] حجاب أخيه انكشفت عورات بيته، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن كابد[٤] الأمور عَطِب، ومن اقتحم[٥] البحر غرق، ومن أُعْجِب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن سَفِهَ عليهم شُتِم، ومن سلك مسالك الشر اتُّهِم، ومن خالط الأنذال حُقِر، ومن جالس العلماء وُقِّر، ومن مزح استُخف به، ومن أكثر من شيء عُرِف به، ومن كثُر كلامه كثر

---

(١) هو الإمام علي بن أبي طالب (٢٣ ق.هـ/٦٠٠م ـ٤٠هـ/٦٦١م) أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين، وأحد المبشرين بالجنة، وابن عم النبي ﷺ وصهره، ولد بمكة، وربي في حجر النبي ﷺ ولم يفارقه (الزركلي: الأعلام ٤/٢٩٥).

(٢) هو الحسن بن علي (٣هـ/٦٢٤م ـ٥٠هـ/٦٧٠م) خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم، أمه فاطمة الزهراء بنت الرسول (ﷺ) بايعه أهل العراق، وأشاروا إليه بالزحف على معاوية، لكنه آثر الصلح معه حقناً لدماء المسلمين توفي في المدينة (الزركلي:الأعلام ٢/١٩٩ـ ٢٠٠).

(٣) هتك: أزال وفضح.

(٤) كابد الأمر: قاساه.

(٥) اقتحم: دخل بقوة.

خطؤه، ومن كثر خطؤه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قل وَرَعُه[1]، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار.

يا بني، من نظر في عيوب الناس ورضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه[2]، ومن تفطَّن اعتبر، ومن اعتبر اعتزل، ومن اعتزل سلم، ومن ترك الحسد كان له المحبة من الناس.

يا بني، عز المؤمن غناؤه عن الناس، والقناعة مال لا ينفد، ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه، والعجب ممن خاف العقاب فلم يكف، ورجا الثواب فلم يعمل، والذكر نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، والسعيد من وعظ بغيره، والأدب خير ميراث، وحسن الخلق خير قرين.

يا بني، ليس من قطيعة الرحم نماء ولا مع الفجور غناء.

يا بني، العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا بذكر الله تعالى، وواحد في ترك مجالسة السفهاء، ومن تزين بمعاصي الله في المجلس أورثه الله ذلاً، من طلب العلم عَلِم.

يا بني، رأس العلم الرفق، وآفته الخُرْق[3]، ومن كنوز الإيمان الصبر على المصائب، العفاف زينة الفقر، والشكر زينة الغنى.

يا بني كثرة الزيارة تورث الملالة، الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم، إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

يا بني، كم من نظرة جلبت حسرة، وكم من كلمة سلبت نعمة، لا شرف أعلى من شرف الإسلام، ولا كرم أعزُّ من التقوى، ولا مَعْقِلَ أعزُّ من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية، ولا مال أذهب للفاقة من

---

(١) الورع: متحرِّج متوقٍ عن المحارم.

(٢) الأحمق: قليل العقل.

(٣) الخُرْق: الحمق.

الرضا[1]، ومن اقتصد على بلغة الكفاف فقد تعجل الراحة، وتبوأ أحسن الدَّعة، والحسد مفتاح التعب ومطية النَّصب[2]، وداع إلى التَّقحُّم في الذنوب، والشَّرَه داع إلى مساوئ العيوب[3]، وكفاك أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك، لأخيك المؤمن عليك مثل الذي عليه، ومن تعرض في أمور من غير نظر في العواقب فقد تعرض لفادحات النوائب[4]، التدبير قبل العمل يؤمنك النَّدم، من استقبل وجوه الآراء عَرَف مواقع الخطأ، الصبر جُنَّة من الفاقة، البخل جلباب المسكنة، الحرص علامة الفقر، وَصُولٌ مُعْدَمٌ خير من جاف مكثر، ولكل شيء قوت، وابن آدم قوت الموت.

يا بني، لا تُؤيس مذنباً، فكم من عاكف على ذنبه ختم له بالخير[5]، وكم من مقبل على عمله مُفْسِدٌ له في آخر عمره، ومن تحرَّى القصد خفت عليه الأمور، في خلاف النفس رُشْدُها، الساعات تنقص الأعمار، ربك أحكم الحاكمين وعالم بضمائر المضمرين، بئس[6] الزاد إلى المعاد، العدوان على العباد، في كل جُرْعة شَرَقٌ[7]، ومع كل لقمة غَصَصٌ، لا تُنال نعمة إلا بفراق أخرى، ما أقرب الراحة من التعب، والبؤس[8] من النعيم، والموت من الحياة، فطوبى لمن أخلص لله علمه وعمله، وحبه وبغضه، وكلامه وصمته، وبَخٍ لعالِم عَلِمَ فكفَّ، وعملَ فجدَّ، وخاف البيان فأعدَّ واسْتعدَّ، إن سئل أفصح، وإن ترك صمت، كلامه صواب، وسكوته غيرُ عيٍّ[9] عن الجواب، والويل كل الويل لمن

(١) الفاقة: الحاجة.
(٢) النصب: الإعياء والتعب.
(٣) الشره: الحرص.
(٤) النوائب: المصائب.
(٥) العاكف: القائم والملازم للشيء أو للأمر.
(٦) بئس: قبح.
(٧) شرق: غص من الماء وغيره.
(٨) البؤس: الشقاء.
(٩) العيّ: العجز عن التعبير.

بلي بحرمان، وخذلانٍ وعصيانٍ، واستحسن لنفسه ما يكرهه الناس له، ويزري على الناس بمثل ما يأتي، من لانت كلمته وجبت محبته، من لم يكن له سخاء ولا حياء، فالموت أولى به من الحياة، لا تتم مروءة[1] الرجل حتى لا يُبالي أي ثوبيه لبس، ولا أيَّ طعام أكل[2].



انتبه للموعظة

كتب معاوية[3] إلى ابنه يزيد[4] يؤنبه ويعاتبه

أما بعد: فقد أدت ألْسنةُ التصريح إلى أذنِ العناية بك، ما فَجَعَ الأملَ فيك وباعَدَ الرجاءَ منك، إذ ملأتَ العيونَ بهجةً، والقلوبَ هيبةً، وترامت إليك آمال الراغبين، وهمم المنافسين.

فَسَعَتَ بك فتيان قريش، وكهول أهلك، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجِرَّة المُهَوَّعة، والكظِ الجَشْء[5].

---

(١) مروءة: آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق.

(٢) أسرار البلاغة للعاملي ص ٣٤٢ على هامش كتاب المخلاة للمؤلف نفسه.

(٣) هو معاوية بن أبي سفيان مؤسس الخلافة الأموية، حكم الشام في عهدي عمر وعثمان، عارض علياً وقاتله في صفين، ثم كان التحكيم، اشتهر بدهائه السياسي، توفي عام (٦٠هـ) (الأعلام: ٧/٢٦١).

(٤) هو يزيد بن معاوية (٢٥هـ ـ ٦٤هـ) ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولي الخلافة بعد وفاة والده... (الأعلام: ٨/١٨٩).

(٥) الجرة المهوعة والكظ الجشء: الجرّة: ما يغيض به البعير فيجتره ثانية. المهوعة: من هوعه: أي قيّأه. والكظ: الامتلاء من الطعام. والجشء: الكثير، والمعنى هو أن سيرة يزيد ممجوجة على كل لسان.

اقتحمْتَ البوائق[1]، وانقدْتَ إلى المعايير. واعتَضْتَها من سموِّ الفضلِ، ورفيع القدر. فليتك ـ يزيد ـ إذا كنت لم تكن، سررت يافعاً ناشئاً، وأثقلت كهلاً ضائعاً[2]، فواحزنا عليك يزيد! ويا حرّ صدر المثْكَلِ بك، ما أشْمَتَ فتيان بني هاشم! وأذلّ فتيان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخرِ ودراسةِ المناقب! فَمَنْ لصلاح ما أفسدت ورَتْقِ ما فتقت؟ هيهات، خمشت الدربة[3] وجه التصبر بك، وأبت الجناية إلا تحدراً على الألْسُن، وحلاوةً على المناطق، ما أربَحَ فائدة نالوها، وفرصةً انتهزوها!

انتبهْ يزيد للعظة، وشاور الفكرة ولا تكنْ إلى سَمْعِك أسرعَ منها إلى عقلِكَ، واعلم أنَّ الذي وطّأكَ وسوسة الشيطان، وزخرفة السلطان مما حَسُنَ قبحهُ واحْلَوْلَى عندك مُرُّه، أمْرٌ شَرِكَكَ فيه السَّواد [4]، ونافسكَهُ الأعبادُ، فأضَعْتَ به من قدرك، وأمكنت به من نفسك فمن لهذا كله؟

واعلمْ يا يزيد أنك طريدُ الموتِ، وأسيرُ الحياة، بلغني أنك اتخذتَ المصانعَ والمجالسَ للملاهي والمزامير كما قال تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩].

وأجْهَرْتَ الفاحشةَ حتى اتخذْتَ سريرتها عندك جهراً.

اعلمْ يا يزيد أن أول ما سلبَكَهُ السُّكرُ معرفةُ مواطنِ الشكر لله تعالى على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة[5]، وهي الجرْحة العظمى، والفُجْعَةُ الكبرى تَرْكُ الصلوات المفروضات في أوقاتها، وهي من أعظم ما يحدث من آفاتها، ثم استحسان العيوب، وركوب الذنوب، وإظهار العورة وإباحة السر، فلا تأمنْ نفسَكَ

---

(١) البوائق: جمع بائقة وهي الداهية.

(٢) كهلاً ضائعاً: كهلاً شهيراً معروفاً من الضَيّاع وهو ضرب من الطيب أو من الضياع بمعنى الفقد والزوال.

(٣) خمشت: لطمت أو جرحت بالظُّفُر ـ الدربة: التجربة والمران.

(٤) السواد: العامّةُ.

(٥) المتواترة: الكثيرة التي تأتي تباعاً.

على سرِّك، ولا تعقد[1] على فعلك، فما خير لذة تعقب الندم، وتعفي الكرم[2]؟

وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستملاك الشهوة، فكن الحاكمَ على نفسك، واجعلِ المحكومَ عليه ذهنك، ترشد إن شاء الله تعالى، وليبلغ أمير المؤمنين ما يُرِدُّ شارداً من نومه، فقد أصبح نَصِب[3] الاعتزال من كل مؤانس ودريئة[4] الألسن الشامتة، وفقك الله فأحْسِنْ[5].



(١) لا تعقد: تفقد الإرادة والعزيمة.

(٢) تعفي: تُذْهِبُ.

(٣) نَصِب: نَصِبَ الهمُّ فلاناً: أوجعه. نَصِبَ الاعتزال: مريض العزلة.

(٤) دريئة: التي يتعلم الرّامي الطعن والرمي عليها، والمراد أنه محط اللوم من الآخرين.

(٥) جواهر الأدب. أحمد الهاشمي. المكتبة العصرية ـ بيروت ص ١٣٨ح١.

أرسل حكيماً ولا توصه

قال مروان بن الحكم[1] يوصي ابنه عبد العزيز حين استعمله على مصر، فقال له حين ودعه: أَرْسل حكيماً ولا توصه:

أيْ بُنيَّ، انظر إلى عُمَّالِكَ، فإنْ كان لهم عندك حق غُدْوَةً، فلا تؤخره إلى عشيّةٍ[2]، وإن كان لهم عشية، فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند مَحلِّها تستوجب بذلك الطَّاعة منهم.

وإياكَ أن يظهرَ لرعيتك منك كذبٌ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يُصدِّقوكَ في الحقِّ.

واستشرْ جلساءَك وأهل العلم، فإن لم يَسْتَبِنْ لك، فاكتب إليَّ، يأْتِكَ رأيي فيه إن شاء الله تعالى.

وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك، فلا تؤاخذْهُ فيه عند سَوْرَةِ الغضب[3]، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون، وأنت ساكن الغضب مُنْطفئ الجمرة، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أَناة.

ثم انظر إلى أهل الحَسَب[4] والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم اعرف منازلهم منك على غير استرسال، ولا انقباض. أقول هذا واستخلِفُ الله عليك[5].

---

(١) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص (٢هـ/٦٢٣م - ٦٥هـ/٦٨٥م) خليفة أموي، وأول من ضرب الدنانير الشامية. توفي بدمشق بعد أن حكم تسعة أشهر و١٨ يوماً. (الزركلي: الأعلام ٧/٢٠٧).

(٢) غدوة: ما بين الفجر وطلوع الشمس - عشية: من زوال الشمس إلى العتمة.

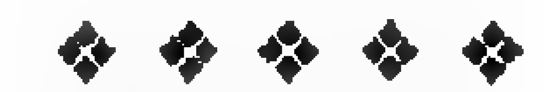
(٣) سَوْرَة: حدة، شدة.

(٤) الحسب: الشرف والكرم وذو حسب ونسب: شريف الأصل.

(٥) العقد الفريد ١/ ٤٢.

اتقوا زَلَّة اللسان

قال المهلَّب[1] لبنيه: يا بنيَّ تباذلوا تحابوا، فإن بني الأم يختلفون، فكيف بنو العَلاَّت[2]. إن البر يَنْسأُ في الأجَلِ[3]، ويزيد في العدد، وإن القطيعة تورث القلة، وتُعْقب النار بعد الذِّلَّة، واتقوا زَلَّة اللسان، فإن الرَّجل تزلُّ رِجْلهُ فينتعش[4]، ويزل لسانه فيهلِك، وعليكم في الحرب بالمكيدة؛ فإنها أبلغ من النَّجدة[5]، فإن القتال إذا وقع وقع القضاء، فإن ظَفِر فقد سَعِد، وإن ظُفِر به لم يقولوا فرَّط[6].



---

(١) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي أبو سعيد (٧ـ ٨٣هـ/٦٢٨ـ ٧٠٢م) أمير، بطاش، جواد (معجم الأعلام: ص ٨٧١).

(٢) بنو العلات: بنو رجل واحد من أمهات شتى. والعلَّة: الضرة.

(٣) يَنْسأُ الأجل: يطيل العمر.

(٤) انتعش العاثر: نهض من عثرته.

(٥) النجدة هنا: الشجاعة والشدة.

(٦) البيان والتبيين ٢ / ١٨٨. مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

تجنَّبِ ارتجالَ الكلام

قال ابن هبيرة[١] وهو يؤدب بعض بنيه: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأي الفطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشر على مستبد ولا على وغد[٢]، ولا على متلون، ولا على لجوج[٣]، وخف الله في موافقة هوى المستشير، فإن التماس موافقته لؤم[٤]، وسوء الاستماع منه خيانة[٥].



كُنْ جَوَاداً...

قال ابن شداد[٦] يوصي ابنه محمداً عندما حضرته الوفاة:

يا بنيَّ إني أرى داعي الموت لا يُقلع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه يَنْزِع[٧] وإني موصيك بوصية فاحفظها:

عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله، وحسن النية في

---

(١) ابن هبيرة: هو يزيد بن عمرو بن هبيرة أبو خالد من بني فزارة (٨٧ـ ١٣٢هـ = ٧٠٦ـ ٧٥٠م).

(٢) وغد: أحمق.

(٣) لجوج: عنيد.

(٤) لؤم: خسة ودناءة.

(٥) البيان والتبيين: ٢/ ١٨٨. مكتبة الخانجي ـ القاهرة.

(٦) عبد الله بن شداد بن الهادي الليثي: كان من صحاب المكانة عند الحجاج بن يوسف في العراق ثم خرج عليه مع ابن الأشعث، يقال إنه قتل سنة (٨٣هـ).

(٧) ينزع: يشتاق.

السر والعلانية، فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد، كن كما قال الحُطيئة:

ولستُ أرى السعادة جمع مال ... ولكنَّ التَّقيَّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وما لابدَّ أن يأتي قريبٌ ... ولكن الذي يمضي بعيدُ

أي بنيَّ: لا تزهدَنَّ في معروف، فإن الدهر ذو صُروف، والأيام ذات نوائب[1]، على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه، واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان ير الهوان، وكن أي بُنيّ كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعدٌّ من الرحمن فضلاً ونعمة ... عليك إذا ما جاء للعُرْف طالبُ
وإنِ امرَأً لا يُرْتجى الخير عنده ... يكون ثقيلاً هيّناً على من يصاحب
فلا تمنعنْ ذا حاجة جاء طالباً ... فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التوا [2] هذا الزمان بأهله ... وبينهم فيه تكون النوائب

أي بني: كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإنَّ أحْمَدَ جُود المراء الإنفاقُ في وجه البِرِّ، وإنَّ أحمدَ بُخلِ الحرِّ الضَّنُّ بمكتوم السِّرِّ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجود بمكنون التِّلاد وإنني ... بسرك عمّن سَالني لضَنين [3]
إذا جاوز الإثنين سرٌّ فإنَّه ... بنثٍّ وتكثير الحديث قمينُ [4]
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني ... مكان بسَوْداءِ الفؤاد مكين [5]

أي بني: وإن غُلِبت يوماً على المال، فلا تدعِ الحيلة على حال، فإن الكريم

---

(١) نوائب: مصائب.

(٢) التِواء: مصدر اِلْتَوى: اعوجَّ وألوى به أهلكه.

(٣) التلاد: المال ـ بسرك عمن سالني لضنين: سالني: سألني ـ ضنين: بخيل.

(٤) نثُّ الحديث: إفشاؤه.

(٥) سوداء القلب: حبته.

يحتال، والدنيّ عيال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، وأقل ما تكون في الباطن مالاً، فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الإنفاد [1] نعمته، وكن كما قال ابن خذاق العبدي:

وجــدتِ أبي قــد اورثــه أبــوه ... خــلالاً قــد تُعــد مــن المعــالي[2]
فــأكرم مــا تكــون علــيّ نفســي ... إذا مــا قــلّ في الأزمــات مــالي
فتَحْسُن سيرتي وأصـون عرضـي ... ويَجمـل عنـد أهـل الـرأي حـالي
وإن نلــتُ الغــنى لم أغــلُ فيــه ... ولم أخصُص بجفـوتي المـوالي[3]

أي بني: وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد، فإنك إن أمضيتها حيالها[4] رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأريب العاقل هو الفطن المتغافل[5]، وكن كما قال حاتم الطائي:

وما مـن شِيمتي شـتْم ابن عمـي ... ومــا أنــا مُخْلِـف مــن يـرتجيني
وكلمــة حاســد في غــير جُــرم ... سمعت فقلـت مُـرِّي فانفـذيني[6]
فعابوهــا علــيّ ولم تَسُــؤني ... ولم يَعــرق لهــا يومــاً جبــيني
وذو اللــونين يلقــاني طليقــاً ... ولــيس إذا تغيّــب يــأتليني[7]
سمعــت بعيبــه فصــفحت عنــه ... محافظــة علــى حَسَــبي وديــني

أي بُنيّ: لا تؤاخ امرأً حتى تعاشره، وتتفقّد موارده ومصادره، فإذا استطعت العِشرة، ورضيت الخبرة[8]، فواخِه على إقالة العثْرة، والمواساة في العُسرة، وكن

---

(١) الإنفاد: الفقر.
(٢) الخلال: جمع خلة: وهي الخصلة.
(٣) غلافي الأمر: جاوز الحد ـ الموالي: الأقارب.
(٤) حيالها: الحيال: ظرف في معنى إزاء.
(٥) المتغافل: المتغابي.
(٦) نفذه: جازه.
(٧) ائتلى: أي قصر.
(٨) الخبرة: العلم بالشيء.

كما قال المقنّع الكِندي:

ابْلُ الرجال إذا أردت إخاءهم   وتوسَّمنَّ فعالهم وتَفقَّد
فإذا ظفرت بذي اللُّبابة[1] والتقى   فبه اليدين قَرين عين فاشدد
وإذا رأيت ولا مَحالة زلة   فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

أي بُنيَّ: إذا أحببت فلا تُفْرِط، وإذا أبغضت فلا تُشْطِط[2]، فإنه قد كان يقال أحبب حبيبك هوْناً ما[3] عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبَك يوماً ما، وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري:

وكنُ معْقِلاً للحلم واصفح عن الخنَا   فإنك راءٍ ما حييت وسامع
وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً   فإنك لا تدري متى أنت نازع[4]
وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً   فإنك لا تدري متى أنت راجع[5]

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

(١) اللبابة: مصدر لب أي صار ذا لب وهو العقل.

(٢) لا تشطط: لا تتجاوز الحد.

(٣) الهون: الرفق.

(٤) نازع: نزع عن الأمر نزوعاً: انصرف وانتهى عنه.

(٥) جواهر الأدب:أحمد الهاشمي.المكتبة العصرية ـ بيروت.ط١. ١٤٢٤ـ٢٠٠٣صفحة ١٨٤.

اذكر فضل الله عليك...

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[1] في العام الذي استُخْلِفَ إلى ابنه عبد الملك ـ وكان ابنه إذْ ذاك بالمدينة:

«أما بعد، فإن أحقَّ من تعاهدتُ بالوصية والنصيحة بعد نفسي أنتَ، وإن أحقَّ من وعى ذلك وحفظه عني أنتَ، إنَّ اللهَ ـ له الحمد ـ قد أحسن إلينا إحساناً كثيراً بالغاً في لطيف أمرنا وعامته، وعلى الله إتمام ما غبر[2] من النعمة، وإياه نسأل العون على شكرها، فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك، ثم أعن أباك على ما قَوِيَ عليه وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزاً عن العمل، فيما أنعم به عليه وعليك في ذلك، فراغِ نفسكَ وشبابَك وصحتك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميداً وتسبيحاً وتهليلاً فافعلْ، فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً حمد الله وشكره وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمدُ الله وذكرُه، فلا تفتتن بما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تقرظ[3] به أباك بما ليس فيه، إن أباك كان بين ظهري إخوته، يفضل عليه الكبير، ويدني دونه الصغير، وإن كان الله ـ وله الحمد ـ رزقني من والدي حباً جميلاً كنت به راضياً، أرى ببره أفضل ولده عليه حقاً، حتى ولدت طائفة من إخوتك، ولا أخرج بكم من المنزل الذي أنا فيه[4]».

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص (٦١ـ١٠١هـ/٦٨١ـ٧٢٠م) الخليفة الصالح، والملك العادل، خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم. (معجم الأعلام: بسام الجابي. دار الجفان والجابي للطباعة والنشر صفحة ٥٤٩).

(٢) غبر: مضى.

(٣) قرظ: مدح.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز: تصنيف ابن الجوزي ـ مطبعة المؤيد ـ القاهرة ـ ١٣٣١هـ صفحة ٢٥٩.

عَوِّدْ نفسَكَ الصَّبر

قال أبو جعفر المنصور[1] يوصي ولده المهدي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهده عبد الله أمير المؤمنين إلى المهدي محمد بن أمير المؤمنين ولي عهد المسلمين حين أسندَ وصيته بعده واستحفظَهُ على الرعية من المسلمين وأهل الذِّمة، وحُرَمِ الله وخزائنه وأرضه التي يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

إنَّ أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد، والعمل بطاعته في العباد، ويحذرك الحَسْرة والنَّدامةَ، والفضيحةَ في القيامةِ، قبل حلول الموتِ، وعاقبة الفَوْتِ حين تقول ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠]. هيهات أين منك المَهلُ، وقد انقضى عنك الأجَلُ، وتقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] فحينئذ ينقطع عنك أهلك، ويحل بك عملك، فترى ما قدمته يداك، وسعت فيه قدماك، ونطق به لسانك، واستَرْكَبَتْ عليه جوارحُك، ولَحَظَتْ له عينُك، وانطوى عليه غيبُك، فتُجزى عليه الجزاءَ الأوفى، إنْ شراً فشراً، وإن خيراً فخيراً، فلتكن تقوى الله من شأنِك، وطاعتُهُ من بالك.

استعِنْ بالله على دينِكَ، وتقرَّبْ به إلى ربك ونفسك، فخذ منها ولا تجعلها للهوى، ولن تعملَ الشر قامِعاً، فليس أحدٌ أكثر وِزْراً، ولا أعزَّ إثماً ولا أعظم مصيبة، ولا أجل رزيئة[2] منك، لتكاثف ذنوبك وتضاعف أعمالك، إذ قلدك الله الرعية تحكم فيهم بمثل الذرة، فيقتضون منك أجمعون، وتُكافى على أفعالِ وُلاتكَ

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس (٩٥هـ/٧١٤-١٥٨هـ/٧٧٥م) ثاني خلفاء العباسيين، وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب، كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء. الزركلي: الأعلام ٤/١١٧.

(٢) رزيئة: مصيبة.

الظالمين، فإنَّ الله يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١].

فكأني بك وقد أُوقِفْتَ بين يدي الجبَّار، وخَذَلَكَ الأنصار، وأسلمك الأعوان، وطوقت الخطايا، وقَرَفَتْ بك الذنوب، وحل بك الوجل، وقعد بك الفشل، وكلت حجتك، وقلت حيلتك، وأخذت منك الحقوق، واقْتادَ منك المخلوق في يوم شديد هوله، عظيم كربه، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر، كاظمين، ما للظالمين من حميم[1] ولا شفيع يطاع، فما عسيت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق، واستقصى عليك الحق، إذ لا خاصَّة تنجيكَ، ولا قرابة تحميك، تطْلُبُ فيه التَّبَاعَةَ، ولا تقبل فيه الشفاعة، ويعمل فيه بالعدل، ويقضى فيه بالفَصْلِ، قال الله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

فعليكَ بالتشميرِ لدينك، والاجتهادِ لنفسكَ، فافكُكْ عنقَكَ، وبادِرْ يومَكَ، واحذَرْ غَدَكَ، واتقِ دنياكَ، فإنَّها دنيا غادرةٌ موبقةٌ، ولتَصدقْ لله نيتُك، وتعظم إليه فاقتك، وليتسع إنصافك، وينبسط عدلك، ويؤمن ظلمك، وواس بين الرعية في الاحتكام، واطلب بجهدك رضا الرحمن وأهل الدين، فليكونوا أعضادك، وأعط حظ المسلمين من أموالهم، ووفر لهم[2] فَيْئَهم، وتابع أعطياتهم عليهم، وعجل بنفقاتهم إليهم سنة سنة وشهراً شهراً، وعليك بعمارة البلاد بتخفيف الخَرَاج[3]، واستصلح الناس بالسيرة الحسنة والسياسة الجميلة، وليكن أهم أمورك إليك تحفُّظَ أطرافِك، وسَدَّ ثغرك وأكماشَ بُعوثِك.

وارغبْ إلى الله عزَّ وجلَّ في الجهاد والمحاماةِ عن دينه، وإهلاكِ عدوِّه بما يفتحُ الله على المسلمين، ويُمكِّن لهم في الدين، وابذل في ذلك مهجتك[4]، ونجدَتَك ومالَك، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك، واصرف مراكز خيلك، ومواطن

---

(١) حميم: صاحب وصديق.

(٢) وَفِّرْ: أمن.

(٣) الخراج: ضريبة الأرض التي كانت تفرض على أهل الذمة (تقابلها الجزية على الرؤوس).

(٤) مهجة: جمعها مهج: الروح.

رحلك، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكُّلُك، فإنه يكفيك ويغنيك وينصرُكَ، وكفى به مؤيداً ونصيراً»[1].

وقال في وصية أخرى[2]:

«أوصيك بتقوى الله ومراقبته، وعليك بإكرام أهل بيتك وإعظامهم، ولاسيما من استقامت طريقته، وطهرت سيرته، وحسنت مودته فيهم، فإن أقرب الوسائل المودة، وأبعد الطيب البغضة، واذكر أهل الجزالة والفضل والعقل منهم، فشرفهم وأوطئ الرجال أعقابهم، فإنه لا يزال لأمر القوم فِطَام، ما كانت لهم أعلام، وأجزل لهم الإعطاء، ووسع عليهم في الأرزاق، فإن أكثر الناس مؤونة أعظمهم مروءة، ثم ليكن معروفك لغيرهم بعدهم، فإن الصلة تزيد الألفة، وصُفْهُمْ ينبلوا، ولا تَبْذِلْهُم فَيَخْلَعُوا.

واعلم أن رضا الناس غاية لا تدرك، فَتحبّبْ إليهم بالإحسان جُهْدَكَ، وَتَثَبَّتْ فيما يَرِدُ من أمورهم عليك، وَوَكِّلْ همومك بأمورك، وتفقد الصغير، تَفَقُّدَكَ الكبيرَ، وخذ أهبة الأمر قبل حلوله، فإن ثمرة التَّواني الإضاعةُ، وكن عند رأس كل أمر لا عند ذنبه، فإن المستقبلَ لأمره سابق، والمستدبِرَ له مسبوقٌ، وولِّ أمركَ الفاضلَ يكن مُسْتَعْلياً، ولا تُولِّ المفضولَ، فإنَّهُ مُزْرٍ[3] باختيارك، وانظر الأموال فإنها عِدَّة الملوك، وبها السلطان ونظام التدبير، فوفرها بولاية أهل العفاف عنها، والحيطة عليها، ولا تَبْذُلْها إلا في إصلاحِ أمور السلطان والرَّعية، وثواب أهل الطاعة والنَّصيحة.

وأحسن إلى نُصحَائك، واستدِمْ مودتهم ومحبتهم بجميل التعهد لهم، والتفقد لأمورهم، ولا تعط عطية تَبْطِرُ الخاصَّ، وتُؤسِفُ العامَّ، واجعل لكلٍّ إليكَ حاجةً، واجعل لهم من فضلك مادَّةً، واسمعْ من أهل التَّجارب، ولا تَرُدَّنَّ ذوي

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٩٢ ـ ٣٩٤.

(٢) جمهرة وصايا العرب ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٣) المزري: المحتقر.

الرأي، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ الصَّبْرَ على التَّعَبِ في إصلاحِ الرَّعية[1]، واترك الهوينى والدَّعة[2]، واعلم أن ذهاب السلطان يُؤْتَى من ثلاثة أمور: قِلَّةِ الحزْم، وضعفِ العَزْمِ، وفَقْدِ صالح الأعوانِ. وإن ثباته بأربع خِلالٍ[3]: المعرفة، وحسن التخير، وإمضاء الاختيار، وَتنكُّبُ أهل الحرص، فإن الحريص لا يبيعك باليسير من حظه وشره، والوزراء أضرُّ الأعداء. ومن خانَك كذَبك، ومن كذبك غَشَّكَ.

واعلم أن مادة الرأي المشاورة، فاختر لمشاورتك أهل اللُّبِّ[4] والرأي والصدق وكتمان السر، وكافئ بالحسنة، وتجاوز عن السَّيئة، ما لم يكن في ذلك ثَلْمُ دين، ولا وهْن سلطان[5]، ودع الانتقامَ فإنَّه أسوأُ أفعالِ القادرِ، وقد استَغْنى عن الحقدِ من عُصِمَ عن المجازاةِ، وعاقبْ بقدرِ الذَّنبِ، واعفُ عن الخطأ، وَأَقِلِ العثراتِ من أهل الرحمة والبلاء، وعليكَ ببلادِ نعمتكَ ومواليك من أهل خُراسانَ وغيرها من الآفاقِ، فإنَّهم أنصَحُ الناس، وأشدُّهم سعياً في بقاء دولتك، فإنما عِزُّهُم بعزِّك، وتَجَنَّبْ دقيقَ أخلاقِ العراقِ، فإنهم نَشؤوا على الخُبْثِ ومذموم الخَلاق، وإذا اطَّلَعْتَ من خَاصيَّتِكَ وأهل نعمتك على مُفْسدٍ لنصيحتك فلا تُقِلْهُ عثْرَةً[6]، ولا تَرْعَ لَهُ حُرْمَةً، ودع الاغترارَ به، فإنك إن اغْتَرَرْتَ به كنتَ كَمُدْخِلِ الحيَّةِ دون شِعارِهِ[7] إن شاء الله».



---

(١) الرعية: عامة الناس الذين عليهم راع يدير أمورهم.

(٢) الدَّعة: الراحة.

(٣) خلال: خصال.

(٤) أهل اللب: أصحاب العقل (العقلاء).

(٥) وهن: ضعف.

(٦) أقال عثرته: صفح عنه وترك ذنبه.

(٧) شعار: والجمع شِعارات وأَشْعِرةٌ وشُعُرٌ: ما ولي الجسد من الثياب.

أكرم نفسك عن كل دنية

قال أبو الحسن: أوصى عبد الملك بن صالح[1] ابناً له فقال: «أي بني، احلم فإنه من حَلُمَ ساد، ومن تفهم ازداد، والق أهل الخير، فإن لقاءهم عمارة القلوب، ولا تجمح بك مطية اللجاج[2]، ومنك من أعتبك[3]، والصاحب مناسب[4]، والصبر على المكروه يعصم القلب، المزاح يورث الضغائن، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف، والاقتصاد يثمر القليل، والإسراف يتبر الكثير[5]، ونعم الحظ القناعة، وشر ما صاحب المرء الحسد، وما كل عورة تصاب[6].

وربما أبصر الأعمى رشده. وأخطأ البصير قصده. واليأس خير من الطلب إلى الناس. والعفة مع الحرفة خير من الغنى مع الفجور. ارفق في الطلب وأجمل في المكسب. فإنه رب طلب جر إلى حَرَبٍ[7] ليس كل طالب بمنجح[8]، ولا كل مُلِحٍّ بمحتاج، والمغبون من غُبِنَ نصيبه من الله. عاتِبْ من رجوت عتباه، وفاكِهْ من أمنْتَ بلواه، لا تكن مضحاكاً من غير سبب، ولا مشّاء إلى غير أرب[9]. ومن نأى

---

(١) عبد الملك العباسي ابن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس (... ـ١٩٦هـ = ... ـ ٨١١م) أمير من بني العباس.

(٢) اللجاج: الخصومة.

(٣) أعتبني فلان: ترك ما كنت أجد عليه من أجله، ورجع إلى ما أرضاني.

(٤) أي بمنزلة النسيب.

(٥) يتبر: يهلك ويدمر.

(٦) العورة: خلل في حدود البلاد يخشى منه.

(٧) حَرَب: أن يسلب الرجل ماله.

(٨) المنجح: ذو النجاح، وهو الظفر والفوز.

(٩) أرب: بغية أو أمنية.

عن الحق ضاق مذهبه، ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله، لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه إنما سعى في مضرته ونفعك، عوِّدْ نفسك السَّماح، وتخيَّر لها من كل خُلُق أحسنه، فإن الخير عادة والشر لجاجة، والصدود آية المقت، والتعلل آية البخل. ومن الفقه كتمان السر[١]. ولقاحُ المعرفة دراسة العلم، وطول التجارب زيادة في العقل، والقناعة راحة الأبدان، والشرف التقوى. والبلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه. بالعقل تستخرج الحكمة، وبالحلم يستخرج غور العقول، ومن شمَّر الأمور ركب البحور. شر القول ما نقض بعضه بعضاً. من سعى بالنميمة حذره البعيد، ومقته القريب، من أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية، ومن توانى في نفسه ضاع، من أسرف في الأمور انتشرت عليه، ومن اقتصد اجتمعت له. واللجاجة تورث الضياع للأمور. غب الأدب أحمد من ابتدائه[٢]. مبادرة الفهم تورث النسيان. سوء الاستماع يعقب العي. لا تحدث من لا يقبل بوجهه عليك، ولا تنصت لمن لا ينمي بحديثه إليك[٣]. البلادة في الرجل هجنة[٤]... الإحجام عن الأمور يورث العجز، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ. سوء الطُّعمة[٥] يفسد العرض، ويخلق الوجه، ويمحق الدين. الهيبة قرين الحرمان، والجسارة قرين الظفر، ومنك من أنصفك[٦]، وأخوك من عاتبك، وشريكك من أوفى لك، وصفيك من آثرك، أعدى الاعتداء العقوق. اتباع الشهوة يورث الندامة، وفوت الفرصة يورث الحسرة، جميع أركان الأدب التأني للرفق. أكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تجد بما تبذل من دينك ونفسك عوضاً، لا تساعد النساء فيمللنك، واستبق من نفسك بقية، فإنهن أن يرينك ذا اقتدار خير من أن يطلعن منك على انكسار...

---

(١) الفقه: العلم بالشيء والفهم له.

(٢) غب الأدب: آخره.

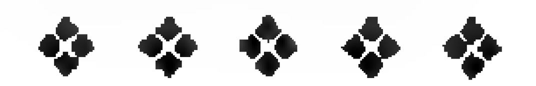
(٣) نمى الحديث ينميه: بلغه تبليغاً وأذاعه.

(٤) الهجنة: العيب.

(٥) الطُّعمة: الكسب.

(٦) نظيره قوله في أول الوصية: (ومنك من أعتبك).

أي بني، إني قد اخترت لك الوصية، ومحضتك النصيحة، وأديت الحق إلى الله في تأديبك، فلا تغفلن الأخذ بأحسنها، والعمل بها. والله موفقك»[1].



الزم معالي الأمور...

قال عبد الرحمن الأوسط[2] يوصي ولده المنذر بن عبد الرحمن [3]: «إن فيك لَتيهاً مفرطاً[4]»، فقال له: حُقَّ لفرع أنت أصله أن يعلوَ، فقال له: يا بُنيَّ، إن العيون تمجُّ التَّيَّاه، والقلوب تنفر عنه. فقال: يا أبي، لي من العز والنسب وَعُلُوِّ المكان ما يجمُلُ عن ذلك، وإني لم أرَ العيون إلا مقبلة عليَّ، ولا الأسماع إلا مصغية إليَّ، وأن لهذا السُّلطان رونقاً يريقه التَّبذُّلُ، وعُلُوّاً يخفضه الانبساط، ولا يصونه ويشرفه إلا التِّيهُ، والانقباض، وأن هؤلاء الأنذالَ لهم ميزان يَسْبرون به الرجل منَّا، فإن رَأَوْهُ راجحاً عرفوا له قدر رجاحته، وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصِهِ، وصيَّروا تواضعه صِغْراً، وتَخَفُّضَه خِسَّةً[5]. فقال له أبوه: لله أنت، فابقَ وما رأيت».

ومما ورد في التربية العملية التي كان يتعهد بها عبد الرحمن الأوسط ابنه[6]: «كان المنذرُ بن الأمير عبد الرحمن الأوسط سيئَ الخُلُق في أوَّلِ أمره، كثيرَ الإصغاء إلى أقوال الوشاة[7]، مفرطَ القلق مما يقالُ في جانبه، معاقباً على ذلك من

---

(١) أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب ج٣ ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموي (١٧٦هـ/٧٩٢م ـ ٢٣٨هـ/٨٥٢م). رابع خلفاء ملوك بني أمية في الأندلس، كان أديباً ينظم الشعر. (الزركلي: الأعلام٣/٣٠٥).

(٣) نفح الطيب ٣٢٩/٢.

(٤) التيه: التكبر.

(٥) خسة: حقارة.

(٦) نفح الطيب ١١٤/٥ـ ١١٥.

(٧) الوشاة: النمامون الذين ينقلون الكلام.

يَقْدِرُ على معاقبته، وكثرَ التشكي ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن، فطال ذلك على الأمير، فقال لوكيل خاص به، عارف بالقيام بما يكلفه به: الموضعُ الفُلاني الذي بالجبل الفُلاني المنقطعُ عن العمران، تَبْني فيه الآن بناء أُسْكِنُ فيه ابني المنذر، وأوصاه بالاجتهاد فيه، ففرغ منه، وعاد إليه، فقال له: تُعْلِمْ المنذرَ أني أمرتُهُ بالانفرادِ فيه، ولا تتركْ أحداً من أصحابه ولا أصحاب غيره يزوره، ولا يتكلم معه البتة، فإذا ضجر من ذلك، وسألك عنه، فقل له: هكذا أمر أبوك، فتولى الثقةُ ذلك على ما أُمِرَ به، ولما حصلَ المنذرُ في ذلك المكان وبقي وحده، وفَقَد خوله[1]، ومن كان يستريح معه، ونظر إلى ما سُلِبَهُ من الملك، فضجر. فقال للثقة: عسى أن يصلني غلماني وأصحابي أتأنَّسُ بهم، فقال له الثقةُ: إن الأميرَ أمر أن لا يصلك أحد، وأن تبقى وحدك لتستريح مما يرفع لك أصحابك من الوشاية، فعلم أن الأمير قصد محنتَهُ بذلك وتأديبه، فاستدعى دواةً وكتب إلى أبيه: إني قد توحّشت في هذا الموضع توحُشاً ما عليه من مزيد، وعدمت فيه من كنت آنس إليه، وأصبحت مسلوب العزِّ، فقيرَ الأمر والنهي، فإن كان ذلك عقاباً لذنب كبير ارتكبته وعلمه مولاي ولم أعلمه، فإني صابر على تأديبه، ضارع[2] إليه في عفوه وصفحه:

وإن أميرَ المؤمنين وفِعْلَهُ ... لكالدَّهْرِ، لا عارٌ بما فعلَ الدهرُ

فلما وقف الأمير على رقعته، وعلم أن الأدب بلغ به حقه، استدعاه فقال له: وصلت رقعتك تشكو ما أصابك من توحّش الانفراد في ذلك الوضع، وترغب أن تأنس بخَوَلِكَ وعبيدك وأصحابك، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن تطول سكناك في ذلك المكان، وما فعلت ذلك عقاباً لك، وإنما رأيناك تكثر الضجر والتشكي من القال والقيل، فأردنا راحتك بأن نحجب عنك سماع كلام من يرفع لك وَيَنُمّ، حتى تستريح منهم. فقال له: سماعُ ما كنت أضجر منه، أخَفُّ علي من التوحُّد والتوحش والتخلي مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهي، فقال له: فإذ قد

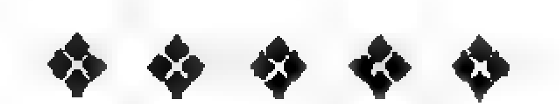
---

(١) الخَوَلُ: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم.

(٢) ضارع: هو السائل الذي يطلب العون.

غرمت وتأدبت، فارجع إلى ما اعتَدْتَهُ، وعوِّل على أن تسمع كأنك لم تسمع، وترى كأنك لم ترَ، وقد قال النبي ﷺ: «لو تكاشفتُم ما تدافَنْتُم» واعلم أنك أقرب الناس إليَّ مني، وبَعْدَ هذا فما يخلو صدرك في وقت من الأوقات عن إنكارٍ عليَّ، وسخط لما أفعله، في جانبك أو جانب غيرك، مما لو أطلعني الله تعالى عليه لساءني، لكن الحمد لله الذي حفظ ما بين القلوب بسترٍ بعضها عن بعض فيما يجول فيها، وإنك لذو همة ومطمح[1]، ومن يكن هكذا يصبر ويغضّ ويَحْمِلْ، ويبدِّلِ العقابَ بالثوابِ، ويُصَيِّرِ الأعداء من قبيل الأصحاب، ويصبرْ من الشخص على ما يسوء، فقد يرى منه بعد ذلك ما يسر، ولقد يَخِفُّ عليَّ اليوم مَنْ قاسيتُ من فعله وقوله ما لو قَطَّعْتُهُمْ عُضواً عُضواً لما ارتكبوه مني ما شفيتُ منهم غيظي[2]، ولكن رأيت الإغضاءَ والاحتمالَ[3]، ولاسيما عند الاقتدار أولى، ونظرت إلى جميع من حولي ممّن يُحسنُ ويسيءُ، فوجدت القلوب متقاربة بعضها من بعض، ونظرتُ إلى المسيء يعود محسناً، والمحسنُ يعود مسيئاً، وصرتُ أندمُ[4] على من سبق له مني عقاب، ولا أندم على من سبق له مني ثواب.

فالزم يا بني مَعَالِيَ الأمورِ، وإن جَمَاعَهَا في التَّغاضي[5]، ومن لا يتغاضى لا يسلم له صاحبٌ، ولا يقرب منه جانبٌ، ولا ينال ما تترقى إليه همته، ولا يظفر بأمله[6]، ولا يجد معيناً حين يحتاج إليه[7].



---

(١) مطمح: ما يُتَطَلَّع إليه.

(٢) غيظ: غضب شديد.

(٣) الإغضاء: السكوت عن الشيء والتغافل عنه.

(٤) أندم: آسف وأحزن وأتوب.

(٥) التغاضي: التغافل.

(٦) ظفر: فاز.

(٧) معين: مساعد.

يا بني اسمع الموعظة...

كتب ابن عبد كان[1] عن أحمد بن طولون[2] إلى ابنه العباس حين عصى عليه بالإسكندرية، منذراً وموبخاً إياه على فعله:

«من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنفسه، العاصي لربه، الملمِّ بذنبه المفسد لكسبه، العادي لطوره، الجاهلِ لقدره، الناكصِ على عقبه، المركوسِ في فتنته[3]، المنجوس من حظ دنياه وآخرته.

سلام على كلِّ مُنيبٍ مُستجيبٍ، تائبٍ من قريب، قبل الأخذ بالكظم وحلول الفوت والندم.

وأحمد الله الذي لا إله إلا هو حمدَ معترفٍ له بالبلاءِ الجميل، والطَّوْلِ الجليل[4]، وأسأله مسألة مخلص في رجائه، مجتهد في دعائه، أن يصلي على محمد المصطفى، وأمينه المرتضى ورسوله المجتبى، ﷺ. أما بعد:

فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها[5]، والنملة يكون حتفها في جناحيها، وستعلم ـ هبلتك الهوابل ـ أيها الأحمق الجاهل الذي ثَنَى على الغيِّ عطفه، واغترَّ بضجاج المواكب خلفه ـ أي موردة هلكةٍ بإذن الله توردت، إذ على الله جل وعز تَمَرَّدْتَ وشَرَدْتَ، فإنّه تبارك وتعالى، قد ضرب لك في كتابه مثلاً: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

[النحل: ١١٢]

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد كان. كان على المكاتبات والرسائل في عهد الدولة الطولونية، وكان بليغاً مترسلاً.

(٢) أحمد بن طولون، أبو العباس (٢٢٠ ـ ٢٧٠هـ / ٨٣٥ ٨٨٤م) الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور ـ تركي مستعرب. (معجم الأعلام صفحة ٤٤).

(٣) المركوس: المرتد.

(٤) الطول: القدرة.

(٥) المدية: السكين.

وإنا كنا نُقرِّبُك إلينا وننسبُكَ إلى بيوتنا طمعاً في إنابتِكَ، وتأميلاً لفَيْئَتِك[١]، فلما طال في الغي انهماكك وفي غمرة الجهل ارتباكك، ولم نرَ الموعظة تُليِّنُ كبدَك، ولا التذكيرُ يقيمُ أَوَدَكَ[٢]، لم تكن لهذه النسبة أهلاً، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحلاً، بل لا نكنَّى بأبي العباس إلا تَكَرُّهاً وطمعاً بأنْ يهبَ الله منكَ خَلَفاً نُقلِّده اسمَكَ ونكنَّى به دُونَك، ونعدُّكَ نسياً منسياً، ولم تكن شيئاً مقضياً، فانظر ـ ولا نظر بك ـ إلى عارِ نسبَتِهُ تقلدْتَ، وسخطِ مِنْ قِبَلِنا تعرَّضْتَ.

واعلمْ أن البلاءَ بإذن الله قد أظلَّكَ، والمكروهُ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ قد أحاطَ بكَ، والعساكرُ ـ بحمد الله ـ قد أتتْكَ كالسَّيل في اللَّيلِ، تؤذنك بحربٍ وبويل[٣]، فإنا نقسم ـ ونرجو أن نجورَ ونظلم ـ ألا نثني عنك عناناً ولا نؤثر على شأنك شأناً، ولا تتوقل ذروة جبل[٤]، ولا تلجُ بطنَ وادٍ، إلا اتبعناكَ بحولِ الله وقوته فيهما، وطلبناكَ حيث أمَّمْتَ منهما، منفقين فيك كلَّ مالٍ خطيرٍ، ومستصغرينَ بسببِكَ كلَّ خطْبٍ جليلٍ، حتى تَستَمِرَّ من طعم العيش ما استَحْليتَ، وتستدفع من البلايا ما استَدعيتَ، حين لا دافع بحول الله عنك، ولا مُزَحْزِحَ لنا عن ساحتك، وتَعْرِفُ من قدر الرخاء ما جهلت، وتودّ لو أنك هَبِلْتَ[٥] ولم تك بالمعيَّةِ عَجِلْتَ، ولا رأيَ من أضلك من غُواتك قَبِلْتَ، فحينئذ يَتفَرَّى[٦] لك الليلُ عن صبحه، ويُفسر لك الحق عن محضه، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما، وتعلم أنك كنت متمسكاً بحبائل غرور، متمادياً في مقابح أمور، من عقوق لا ينام طالبه، وبغيٍ لا ينجو هاربه، وغدر لا ينتعش صريعه، وكفران لا يودى قتيله، وتقف على سوء رَوِيَّتِكَ وعِظَم جريرتك[٧]، في تركك قبول الأمان، إذ هو لك مبذول، وأنت عليه محمول، وإذ السيف عنك مغمود، وباب التوبة إليك مفتوح،

(١) الفيء: الرجوع.
(٢) أود: اعوجاج.
(٣) ويل: شر وهلاك.
(٤) ذروة: قمة، وتوقّل في الجبل: صعّد فيه.
(٥) هَبِلَ: فقد عقله وتمييزه.
(٦) يتفرّى: يتكشف.
(٧) جريرة: الجناية والذنب.

وتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعاً وانقدت إليه منتصحاً.
وإن مما زاد في ذنوبك عندي ما ورد به كتابك عليَّ بعد نفوذي على الفسطاط من التمويهات والأعاليل والعِدَاتِ بالأباطيلِ من مصيرِكَ - بزعمك - إلى إصلاحِ ما ذكرت أنَّه فسد عليَّ، حتى مِلْتَ إلى الإسكندرية فأقمتَ بها طولَ هذه المدة، واستظهاراً عليك بالحجة، وقطعاً لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناةَ غيرُ صادَّة، ولا أنه خالجني شك ولا عارضني ريب في أنك إنما أردت النزوح والاحتيال للهرب والنزوع إلى بعض المواضع التي لعل قصدك إياها يوديك، ولعل مصيرك إليها يكفينيك، ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك، لأنك إن شاء الله لا تقصد موضعاً إلا تَلَوْتُكَ، ولا تأتي بلداً إلا قَفَوْتُكَ[1]، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل في حبلها، وفصم عروتها، فإن أحداً لا يؤوي مثلك ولا ينصره إلاَّ لأحَدِ أمرَيْن من دين أو دنيا، فأمَّا الدين فأنت خارج من جملته لمقامك على العقوق ومخالفة ربك وإسخاطه، وأما الدنيا فما أراه بقي معك من الحطام الذي سرقته أو حملت نفسك على الإيثار به، ما يتهيأ لك مكاثرتنا بمثله، مع ما وهب الله لنا من جزيل[2] النعمة التي نستودعه تبارك وتعالى إياها، ونرغب إليه في إنمائها إلى ما أنت مقيم عليه من البغي الذي هو صارعك، والعقوق الذي هو طالبك وأمَّا مَا منَّيْتَنَاه من مصيرك إلينا في حشودك وجموعك ومن دخل في طاعتك لإصلاح عملنا ومكافحة أعدائنا فاهتمّ بأمر نفسك قبل إصلاحك عملنا، واحزم في أمرك قبل استعمالك الحزم لنا، فما أحوجنا - وله الحمد - إلى نصرتك ومؤازرتك، ولا اضطرَّرنا إلى التكثر بك على شقائك ومعصيتك ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا[3]﴾ [الكهف: ٥١].

وليت شعري[4] على من تهولُ بالجنود، وتمخرق بذكر الجيوش، ومن هؤلاء المسخرون لك، الباذلون دماءهم وأموالهم وأديانهم دونك، دون رزق

(١) فقوتك: تبعتك.
(٢) جزيل: العظيم الكثير.
(٣) عضداً: نصيراً ومساعداً.
(٤) ليت شعري: أود لو كنت أعلم (عبارة تعجب).

ترزقهم إياه ولا عطاء تدره عليهم؟ فقد علمت ـ إن كان لك تمييز أو عندك تحصيل ـ كيف كانت حالك في الوقعة التي كانت بناحية طرابلس، وكيف خذلكَ أولياؤك والمرتزِقَةُ معك حتى هُزِمت، فكيف تغترّ بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك، ولا رزق يجري لهم على يدك؟ فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداراة لك، والخوف من سلطانك، فإنهم ليجذبهم أضْعافُ ذلك منا، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك، وإنّهم لأحْرى بخذلك[1]، والميل إلينا دونك ولو كانوا جميعاً معك، ومقيمين على نصرتك، لرجونا أن يمكّن الله منك ومنهم، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم، ويجرينا من عادته في النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضّل علينا بأمثاله، ويَتَطَوّلُ بأشباهه، فما دعاني إلى الإرجاء لك، والتسهيل من خناقكَ، والإطالة من عنانِكَ[2]، طول هذه المدة إلا أمران: أغلبهما كان عليَّ احتقار أمرك واستصغاره، وقلة الاحتفال والاكتراث به[3]، وإني اقتصرت من عقوبتك على ما أحللته بنفسك من الإباق[4] إلى أقاصي بلاد المغرب، شريداً عن منزلك وبلدك، فريداً من أهلك وولدك، والآخر أني علمت أن الوحشةَ دعتك إلى الانحياز إلى حيث انحزت إليه، فأردت التسكينَ من نفارِكَ[5] والطمأنينة من جاشك[6] وعملت على أنك تحن إلينا حنين الولد، وتتوق إلى قربنا توقان ذي الرحم والنَسَبِ، فإن في رِفْقِنا بك ما يعطفك إلينا، وفي تآخينا إيَّاك ما يردك علينا، ولَمْ يسمعْ منا سامعٌ في خلاءٍ ولا ملاءٍ انتقاصاً بك، ولا غضاً منك، ولا قدحاً فيك، رقة علينا واستتماماً لليد عندك، فأما الآن مع اضطرارك إيايَّ إلى ما اضطررتني إليه من الانزعاج نحوك، وحبسك رسلي النَّقِذِين بعهد كثير إلى ما قبلك، واستعمالك المواربة والخداع[7]

---

(١) خذل: تخلى عن نصرته.

(٢) عنان: لجام الفرس. وطويل العنان: شريف عظيم السؤدد.

(٣) الاكتراث به: الاهتمام به.

(٤) الإباق: الهروب.

(٥) نفار: هروب وابتعاد.

(٦) الجأش: النفس أو القلب.

(٧) خداع: ما يخيل للرائي أنه موجود وليس كذلك.

فيما يجري عليه تدبيرك، فما أنت بموضع للصيانة ولا أهل للإبقاء والمحافظة بل اللعنة عليك[1] حالّة والذمة منك برية، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة، والإضاعة لرحم الأبوة، فعليك من ولد عاق مشاق، لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين، ولا قَبِلَ الله لك صَرْفاً ولا عدلاً[2]، ولا ترك لك منقلباً ترجع إليه، وخذلك خذلان من لا يؤبه له، وأثكلك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حفظك، فوالله لأستعملن لعنات في دُبُرِ[3] كل صلاة والدعاء عليك في آناء الليل والنهار، والغدو والآصال، ولأكتبن إلى مصر وأجناد الشامات والثغور وقنسرين والعواصم والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتباً تقرأ على منابرها فيك، باللعن لك، والبراءة بك، والدلالة على عقوقك وقطيعتك، يتناقلها آخر عن أول ويأثرها غابر عن ماض، وتخلد في بطون الصحائف، وتحملها الركبان، ويُتَحَدَّثُ بها في الآفاقِ، وتلحق بك وبأعقابك عاراً، ما اطّرد الليل والنهار، واختلف الظلام والأنوار. فحينئذ تعلم أيها المخالف أمر أبيه، القاطع رحمه، العاصي ربه، أي جناية[4] على نفسك جنيت، وأي كبيرة اقترفت[5] واجتنيت؟ ونتمنى لو كانت فيك مسكة، أو فيك فضل إنسانية، أنك لم تكن ولدت، ولا في الخلْقِ عُرفت إلا أن تراجع من طاعتنا، والإسراع إلى ما قبلنا، خاضعاً ذليلاً كما يلزمك، فنقيم الاستغفار مقام اللعنة، والرقة مقام الغلظة، والسلام على من سمع الموعظة فوعاها، وذكر الله فاتقاه، إن شاء الله تعالى»[6] *.

---

(١) اللعنة: العذاب والطرد.

(٢) صرفاً ولا عدلاً: فرضاً ولا سنة.

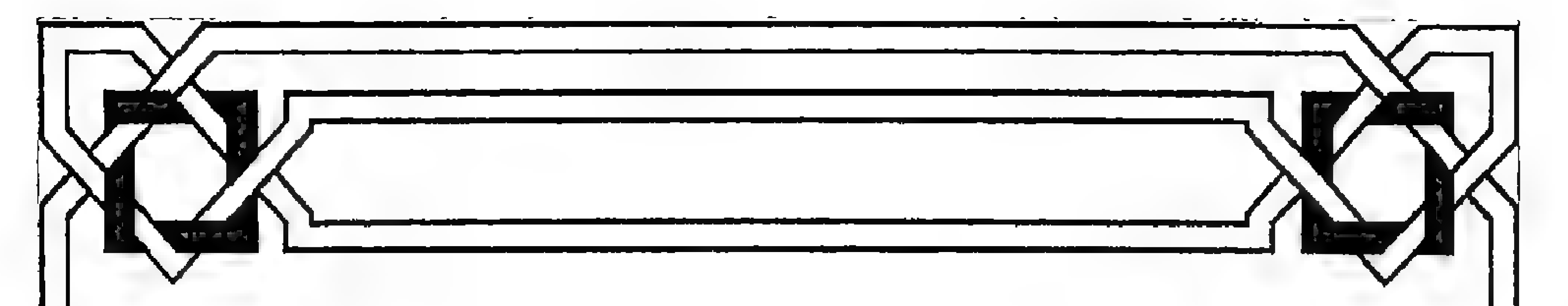
(٣) دبر: عقب.

(٤) جناية: جريمة.

(٥) اقترف: ارتكب.

(٦) انظر أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب (ج ٤، ص ٣٦٦ ـ ٣٧٣).

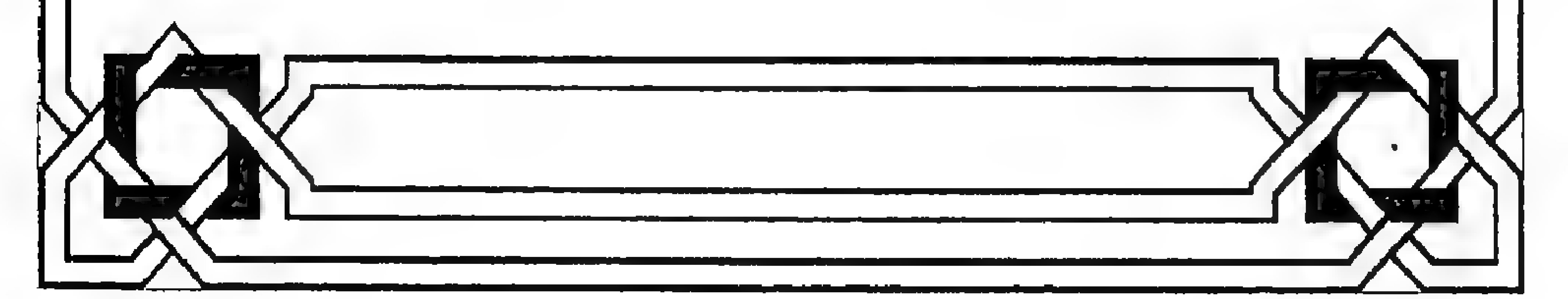
* كان أحمد بن طولون قد خرج إلى الشام واستخلف ابنه العباس على مصر، فحسن للعباس جماعة أخذ الأموال والاتجاه إلى المغرب العربي لقتال أهله، وبلغ الخبر أباه فعاد إلى مصر وأرسل إلى ابنه ولاطفه واستعطفه فأبى أن يعود لمصر فأرسل أحمد بن طولون إلى ولده عسكراً قاتلوه وردوه إلى مصر وعاقبه ووبخه وذمه، ووضعه تحت الإقامة الجبرية ومات ابن طولون سنة (٢٧٠هـ).



الفصل الرابع

وصايا العلماء والأدباء

- ـ تعلموا العلم (وصية عروة بن الزبير).
- ـ إياك والنميمة (وصية جعفر الصادق).
- ـ أظهر للناس الجميل (وصية سعيد بن جبير).
- ـ كفّ الأذى (وصية عبد الله بن الحسن).
- ـ ضع الأمور مواضعها (وصية العتبي).
- ـ النصيحة الوَلَدِيَّة (مختارات من وصايا الإمام الباجي).
- ـ انتبه يابني لنفسك (وصايا ابن الجوزي لابنه محمد).
- ـ يابني أحبوا محمداً ﷺ (وصية لسان الدين بن الخطيب).



تعلموا العلم

قال أبو الحسن: وعظ عُرْوَةُ[1] بنيه فقال: «تعلموا العلم، فإنكم إن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين» ثم قال: «الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم. وإذا رأيتم من رجل خَلَّة[2] فاحذروه، واعلموا أن عنده لها أخوات»[3].



إياك والنميمة

قال جعفر الصادق[4] يوصي ابنه موسى قائلاً[5]: «يا بُنيَّ من رضي بما قُسم له استغنى، ومن مدَّ عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرضَ بما قسمه الله له اتَّهم الله في قضائِهِ، ومن استصغر زَلَّة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه.

يا بنيَّ من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلَّ سيف البغي قُتِل به، ومن احْتَفَرَ لأخيه بئراً سقط فيها، ومن داخل السفهاء حُقِرَ، ومن خالط العلماء وُقِرَ، ومن دخل مداخل السوء اتُّهِمَ.

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله (٢٢ ـ ٩٣هـ = ٦٤٣ ـ ٧١٢م). أحد الفقهاء السبعة بالمدينة (معجم الأعلام: ٤٩٤).

(٢) الخلة: الخصلة: أراد خلة مستهجنة.

(٣) البيان والتبيين. الجاحظ ٢/ ٢٠٢.

(٤) هو جعفر بن محمد الباقر زين العابدين بن الحسين السبط (٨٠هـ/٦٩٩م ـ ١٤٨هـ/٧٦٥م) كانت له منزلة رفيعة في العلم لقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب مطلقاً (الزركلي/ الأعلام ١٢٦/٢).

(٥) حلية الأولياء ٣/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

يا بنيَّ، إياك أن تُزْري بالرجال فَيُزْرَى بك، وإياكَ والدخولَ فيما لا يَعنيك، فَتَذِلَّ لذلك.

يا بنيَّ كُنْ لكتابِ الله تالياً[1]، وللإسلام فاشياً[2]، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً ولمن سألك معطياً، وإياك والنَّميمةَ، فإنها تزرع الشحناء[3] في قلوب الرجال، وإياك والتعرض لعيوب الناس، فمنزلة التعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف.

يا بني إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه، فإن للجود معادن، وللمعادن أصولاً، وللأصول فروعاً، وللفروع ثمراً، ولا أصل ثابت إلا بمعدن طيب.

يا بني إذا زُرت فَزُرِ الأخيار، ولا تزرِ الفجار، فإنهم صخرة لا ينفجر ماؤها، وشجرة لا يخضر ورقها، وأرض لا يظهر عشبها».



أظهر للناس الجميل

قال سعيد بن جبير[4] لابنه: يا بني أوصيك بوصية إن لم تحفظها مني كنت جديراً ألا تحفظها من غيري: يا بني أظهر للناس الجميل، وإياك وطلب الحاجة فإنه فقر حاضر، وإذا صليت، فصل صلاة مودع وأنت ترى أن لا تصلي بعدها أبداً، وإن استطعت أن تكون غداً خيراً منك أمسِ فافعلْ.



---

(١) تالياً: قارئاً.

(٢) فاشياً: داعياً.

(٣) الشحناء: البغضاء.

(٤) سعيد بن جبير الأسدي الكوفي، أبو عبد الله (٤٥ ـ ٩٥هـ =٦٦٥ـ٧١٤م) تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد.

كُفَّ الأذى...

ومن خطباء بني هاشم: عبد الله بن الحسن بن الحسن[1]، وهو القائل لابنه محمد[2]: «أيْ بُنيَّ، إني مؤدٍّ إليك حقَّ الله في تأديبك، فأدِّ إليَّ حق الله في حسن الاستماع.

أي بني، كفَّ الأذى، وارفض البَذَا، واستعنْ على الكلام بطول الفكرِ في المواطن التي تدعوكَ نفسُكَ فيها إلى القولِ، فإنَّ للقول ساعاتٍ يضرُّ فيها الخطأ، ولا ينفع فيها الصواب. واحذرْ مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً، يوشك أن يُورِّطاك بمشورتهما، فيسبقَ إليك مكرُ العاقل، وتوريط الجاهل».



ضع الأمور مواضعها

قال العتبي[3] يوصي ابنه عبد الرحمن[4]: يا بنيَّ، إني أتركك مع من لا يتركك، فاكحلْ عيونهم بحُسنٍ منك، تقطع ألسنتهم عنك، وكن لنفسك تكُنْ لك، وخذْ من كلِّ زمان محاسن ما فيه، وأنت قليل، فاتق الله تكن به كثيراً، واعلم بأنك

---

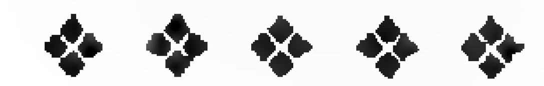
(١) عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي. أبو محمد (٧٠ ـ ١٤٥هـ = ٦٩٠ ـ ٧٦٢م). تابعي من أهل المدينة (معجم الأعلام: ٤٣٨).

(٢) البيان والتبيين. ١/ ٣٣٢.

(٣) هو محمد بن عبيد الله بن عمرو، أبو عبد الرحمن (... ـ ٢٢٨هـ/٨٤٢م) أديب كثير الأخبار، حسن الشعر، ولد وتوفي في البصرة. له تصانيف، منها «الأخلاق» وأشعار الأعاريب. (الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩).

(٤) عن جمهرة وصايا العرب ٣/ ١٩١.

تَخْرُجُ بموتي عن سَعَةِ عُذْرٍ إلى ضيقِ مداراةٍ، فضع الأمورَ مواضعها تضعْكَ موضِعَك، واجعل دنياك صلة لآخرتك، ولا ترضَ لها بها عوضاً من الآخرة، فإن الله لم يرضَها عقاباً لمن سخط عليه، ولا ثواباً لمنْ رضيَ عنه، وانظُرْ بَنَاتي، فوصِّيتي منهنَّ بما أوصى سعيد بن العاص في بناته».



النَّصيحةُ الوَلَدِيَّة

قال الشيخ الفقيه الإمام الحافظ أبو الوليد الباجي(١) يوصي وَلَدَيْهِ:

وأما القسم الثاني مما يجب أن تكونا عليه، وتتمسكا به: فأن يلتزم كل واحد منكما لأخيه الإخلاص والإكرام والمراعاة في السر والعلانية، والمراقبة في المغيب والمشاهدة.

وليلزمْ أكبرُكُما لأخيه الإشفاق عليه والمسارعة إلى كل ما يحبه، والمعاضَدَةَ فيما يؤثره، والمسامحة لكل ما يرغبه.

ويلتزمْ أصغرُكُما لأخيه تقديمه عليه، وتعظيمه في كل أمر بالرجوع إلى مذهبه، والاتباع له في سِرّه وجهْرِه، وتصويب قوله وفعله.

---

(١) هو سليمان بن خلف بن سعد النجيبي القرطبي (٤٠٣ ـ ٤٧٤هـ = ١٠١٢ ـ ١٠٨١م). فقيه مالكي كبير من رجال الحديث، ولد في باجه بالأندلس. وجه إلى ولديه وصيته، ورد ذكرها في مصادر عديدة. وسماها ابن فرحون في «الديباج المذهب» النصيحة الولدية. حققها الأستاذ إبراهيم باجس عبد المجيد، وأصدرها في دار ابن حزم الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م. بيروت ـ لبنان. وتتألف الوصية من قسمين: القسم الأول وصايا فيما يلزم من أمر الشريعة. والقسم الثاني فيما يجب أن يكونا عليه في أمر دنياهما. اخترت بعض ما ذكر في القسم الثاني من النصيحة المطبوعة في دار ابن حزم تحقيق إبراهيم عبد المجيد.

وإنْ أنكرَ منه في الملأ أمراً يريده أو ظهر إليه خطأ فيما يقصده، فلا يظهر إنكاره عليه، ولا يجهر في الملأ بتخطئته، وليبيِّنْ له ذلك على انفراد منهما، ورفق من قولهما، فإن رجع إلى الحق، وإلا فليتبعه على رأيه، فإن الذي يدخل عليكما من الفساد باختلافكما أعظم مما يحذر من الخطأ مع اتفاقكما ما لم يكن الخطأ في أمر الدين، فإن كان في أمر الدين، فليتبع الحق حيث كان، وليثابر على نصح أخيه وتسديده ما استطاع، ولا يحل يده عن تعظيمه وتوقيره.

ولا يُؤثِرْ أحدكما على أخيه شيئاً من عَرَضِ الدنيا[1]، فيبخل بأخيه من أجله، ويُعرض عنه بسببه، أو ينافسه فيه، ومن وُسِّع عليه منكما في دنياه، فليشارك بها أخاه، ولا ينفرد بها دونه، وليحرص على تثمير مال أخيه كما يحرص على تثمير ماله.

وأظهرا التعاضد[2] والتواصل والتعاطف والتناصر، حتى تُعرفا به فإن ذلك مما تُرضيان به ربَّكُما، وتغيظان به عدوَّكما.

وإياكما والتنافس[3] والتقاطع والتدابر والتحاسد وطاعة النساء في ذلك، فإنه مما يفسد دينكما ودنياكما، ويضع من قدركما، ويحطُّ من مكانكما، ويحقرُ أمركما عند عدوكما، ويُصغِّر شأنكما عند صديقكما.

ومن أسدى[4] منكما إلى أخيه معروفاً أو مكارمة أو مواصلة، فلا ينتظر مقارضة[5] عليها، ولا يذكر ما أتى منها، فإن ذلك مما يوجب الضغائن، ويسبب التباغض ويقبح المعروف، ويحقر الكبير، ويدل على المقت والضَّعة[6] ودناءة الهمة.

---

(١) عَرَضٌ: متاع.

(٢) التعاضد: التعاون.

(٣) التنافس: الاختلاف.

(٤) أسدى: قدم وأعطى.

(٥) المقارضة: الجزاء والثناء مقابل المعروف.

(٦) الضَّعة: الهوان.

وإن أحدكما زل وترك الأخذ بوصيتي في بر أخيه ومراعاته، فَلْيَتَلافَ الآخر ذلك بتمسكه بوصيتي، والصبر لأخيه والرفق به، وتَرْكِ المقارضة له على جفوته، والمتابعة له على سوء معاملته، فإنه يحمد عاقبة صبره، ويفوز بالفضل في أمره، ولا يكون ما يأتيه أخوه كبير تأثير في حاله.

واعلما أني قد رأيت جماعة لهم أحوال ولا أقدار، أقام أحوالهم ورفع أقدارهم اتفاقهم وتعاضدهم، وقد رأيت جماعة كانت أقدارهم سامية، وأحوالهم نامية، مَحَقَ أحوالهم، ووضع أقدارهم اختلافُهُمْ. فاحذرا أن تكونا منهم.

ثم عليكم بمواصلة بني أعمامكما وأهل بيتكما، والإكرام لهم، والمواصلة لكبيرهم، وصغيرهم، والمشاركة لهم بالمال والحال، والمثابرة على مهاداتهم، والمتابعة لزيارتهم، والتعاهد لأمورهم، والبرّ لكبيرهم، والإشفاق على صغيرهم، والحرص على نماء مال غنيهم، والحفظ لعيبهم، والقيام بحوائجهم، دون اقتضاء لمجازاة، ولا انتظار مقارضة، فإن ذلك مما تسودان به في عشيرتكما، وتعظمان به عند أهل بيتكما، وصلا رحمكما وإن ضعف سببها، وقربا ما بَعُدَ منها، واجتهدا في القيام بحقها، وإياكما والتضييع لها، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب النسأ[1] في الأجل والسَّعَةِ في الرزق، فليصل رحمه»[2].

وهذا مما يَشْرُفُ به مُلْتَزِمُهُ، ويعظمُ عند الناس مُعَظِّمُهُ، وما علمتُ أهلَ بيت تقاطعوا وتدابروا إلا هلكوا وانقرضوا، ولا علمتُ أهلَ بيت تواصلوا وتعاطفوا إلا نموا وكثروا، وبُورِكَ لهم فيما حاولوا.

ثم الجار عليكما بحفظه، والكفُّ عن أذاه، والستر لعورته، والإهداء إليه، والصبر على ما كان منه، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُؤْمن من لا يَأْمن جارُه بوائقَهُ»[3]، وروي عنه ﷺ أنه قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنّه سَيُوَرِّثُهُ»[4].

---

(١) النسأ: الزيادة.

(٢) رواه البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٥٥٧).

(٣) روه البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٤٦).

(٤) البخاري (٦٠١٤) و(٦٠١٥).

واعلما أن الجوار قرابة ونسب، فتحبّبا إلى جيرانكما كما تتحببان إلى أقاربكما، ارعيا حقوقهم في مشهدهم ومغيبهم، وأحْسِنا إلى فقيرهم، وبالغافي حفظ غيبهم، وعلِّما جاهلهم.

ثم من علمتما من إخواني وأهل مودتي، فإنه يتعيَّن عليكما مراعاتهم وتعظيمهم وَبِرُّهُم وإكرامهم ومواصلتهم، فقد رُوِيَ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه حدَّث عن النبي ﷺ أنّه قال: «إن أبرَّ البرِّ أن يصلَ الرجلُ أهلَ ودِّ أبيه»[1]، ثم إخوانكما عاملاهم بالإخلاص والإكرام وقضاء الحقوق والتجافي[2] عن الذنوب والكتمان للأسرار.

وإياكما أن تحدثا أنفسكما أن تنتظرا مقارضة ممن أحسنتما إليه، وأنعمتما عليه، فإن انتظار المقارضة تمسح الصَّنيعة[3]، وتعيد الأفعال الرفيعة وضيعة[4] وتقلب الشكر ذماً، والحمد مقتاً.

ولا يجب أن تعتقدا معاداة أحد، واعتمدا التحرز من كل أحد، فمن قصدكما بمطالبة، أو تكرر عليكما بأذية، فلا تقارضاه جهدكما، والتزما الصبر له ما استطعتما، فما التزم أحد الصبر والحلم إلا عزَّ ونُصِرَ، ومن بُغِيَ عليه ليَنْصُرَنَّه الله. وقد استعملت هذا بفضل الله مراراً، فحمدت العاقبة، واغتبطتُ بالكف عن المقارضة[5]».



(١) رواه مسلم (٢٥٥٢). والترمذي (١٩٠٤).

(٢) التجافي: البعد والإعراض.

(٣) الصنيعة: ما يصنع من فعل الخير.

(٤) وضيعة: دنيئة.

(٥) اغتبط: فرح.

انتبه يا بني لنفسك

قال ابن الجوزي ينصح ابنه محمداً[1]:

اعلم يا بني، وفقك الله للصواب! أنه لم يتميز الآدمي بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك، وأعمل فكرك، واخل بنفسك تعلم بالدليل أنك مخلوق مُكَلَّف، وأن عليك فرائض أنت مطالب بها، وأن الملكين يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأن أنفاسَ الحي خطاه إلى أجله، ومقدارَ اللبث في الدنيا قليل، والحبسَ في القبور طويل، والعذابَ على موافقة الهوى وبيل[2].

فأين لذة أمس؟ رحلت وأبقت ندماً، وأين شهوة النفس؟ كم نكّسَت رأساً، وأزلت قدماً، وما سَعِد من سعد إلا بخلاف هواه، ولا شقي من شقي إلا بإيثار دنياه[3].

فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد، أين لذة هؤلاء؟ وأين تعب أولئك؟ بقي الثواب الجزيل، والذكر الجميل [للطائعين]، والمقَالَةُ القبيحة والعقابُ الوبيل للعاصين. وكأنه ما جاع من جاع، ولا شبعْ من شبع.

---

(١) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج (٥٠٨ ـ ٥٩٧هـ = ١١١٤ ـ ١٢٠١م) علاّمة عصره في التاريخ والحديث. كثير التصانيف. مولده ووفاته في بغداد، ونسبته إلى «مشرعة الجوز» كان له عشرة أولاد خمسة ذكور وخمس إناث، مات أربعة ذكور وبقي منهم ابنه محمد. ولما رأى منه توانيا عن الجد في طلب العلم، كتب له مجموعة وصايا يحثه بها ويحركه على سلوك طريق كسب العلم. سميت هذه الوصايا (لفتة الكبد في نصيحة الولد) طبعت في المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ دمشق، عدة طبعات بتقديم وتحقيق مروان قباني الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م. ومنها نسخت متن الوصايا مع توثيق الآيات والأحاديث وشرح بعض الكلمات والعبارات.

(٢) وبيل: شديد.

(٣) إيثار: حب وتفضيل.

والكسل عن الفضائل بئس الرفيق، وحب الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه واتعب لنفسك.

واعلم أن أداء الفرائض واجتناب المحارم لازم، فمتى تعدى الإنسان فالنارَ النارَ، ثم اعلم أن طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين، ثم الفضائل تتفاوت، فمن الناس من يرى الفضائل الزهدَ في الدنيا، ومنهم من يراها التشاغلَ بالتعبد.

وعلى الحقيقة، فليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل، فإذا حصلا رَفَعا صاحبهما إلى تحقيق معرفة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وحركاه إلى محبته وخشيته والشوق إليه.

فتلك الغاية المقصودة، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وليس كل ما يُراد مراداً، ولا كل طالب واجداً، ولكن على العبد الاجتهاد، وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له، والله المستعان.

وأول ما ينبغي النظر فيه: معرفة الله تعالى بالدليل، ومعلوم أن من رأى السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، وشاهد الأبنية المحكمة خصوصاً في جسد الإنسان، علم أنه لابد للصنعة من صانع، وللمبْنَى من بانٍ.

ثم يتأمل صِدْقَ الرسول ﷺ إليه، وأكبر الدلائل: القرآن الذي أعجز الخلْق أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا ثبت عنده وجودُ الخالق ـ جلّ وعلا ـ وصِدْقُ الرسول ﷺ وجب تسليم عنانه إلى الشرع[1]، فمتى لم يفعل دلّ على خلل في اعتقاده.

ثم يجب عليه أن يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة والزكاة ـ إن كان له مال ـ والحج وغير ذلك من الواجبات، فإذا عرف قدر الواجب قام به.

فينبغي لذي الهمة أن يترقى إلى الفضائل، فيتشاغل بحفظ القرآن وتفسيره،

---

(١) تسليم عنانه إلى الشرع: أي قبول وتطبيق أوامر الله ورسوله دون أي اعتراض، وذلك امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وبحديث الرسول ﷺ، وبمعرفة سيرته وسير أصحابه والعلماء بعدهم ليتخير مرتبة الأعلى فالأعلى، ولابد من معرفة ما يقيم به لسانه من النحو، ومعرفة طرف مستعمل من اللغة.

والفقه أصل العلوم[١]، والتذكير[٢] حلواؤها وأعمها نفعاً، وقد رَتّبْتُ في هذه المذكورات من التصانيف ما يغني عن كل ما سبق من تصانيف القدماء وغيرها بحمد الله ومنّه[٣]، فأغنيتك عن تطلب الكتب وجمع الهمم للتصنيف، وما تقف همة إلا لخساستها، وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع بالدون، وقد عرفت بالدليل أن الهمة مولودة مع الآدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حُثّت سارت[٤]، ومتى رأيت في نفسك عجزاً فسل المنعم، أو كسلاً فالجأ إلى الموفق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، ولا يفوتك خير إلا بمعصيته، فمن الذي أقبل عليه فلم يَرِدْ كل مراد؟ ومن الذي أعرض عنه فمضى بفائدة، أو حظي بغرض من أغراضه؟ أو ما سمعت قول الشاعر[٥]:

والله مـــا جئـــتكم زائـــراً	إلا وجـدتُ الأرضَ تُطـوى لي
ولا ثنيـتُ العـزم عَـنْ بَـابكم	إلا تعثـــرتُ بأذيـــالي

وانظر يا بنيّ إلى نفسك عند الحدود[٦]، فتلمح كيف حِفْظُك لها، فإنه من راعى روعي، ومن أهمل تُرك، وإني لأذكر لك بعض أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي وتسأل الموفق لها، فإن أكثر الإنعام علي لم يكن بكسبي، وإنما هو من تدبير اللطيف بي[٧]، فإني أذكر نفسي ولي همة عالية وأنا في المكتب ابن ست

---

(١) الفقه في اللغة: الفهم والفطنة، والفقه في المصطلح: هو العلم بالأحكام الشرعية.

(٢) التذكير: يعني هنا الوعظ، وقد أكثر المؤلف من المجالس والمؤلفات الوعظية...

(٣) منّه: نعمه وفضله.

(٤) حُثّت: حُضّت واستعجلت.

(٥) الشاعر هو الشريف الرضي.

(٦) الحدود هنا: ما حده الله وبينه في شؤون الخلق من حلال وحرام، وينبغي للمسلم أن يتنبه ويحذر من تجاوز الحدود.

(٧) يقول المؤلف هذا من باب إرجاع الأمور إلى الله تعالى، ولكن لا يعني هذا دعوة إلى التواكل كما يفهم البعض فلابد للمسلم من العمل والكسب ثم التوكل..

سنين وأنا قرين الصبيان الكبار، قد رُزقت عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط ولا ضحكت ضحكاً خارجاً.

حتى إني كنت ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة[1] الجامع، فلا أتخيّر حلقة مشعبة[2]، بل أطلب المحدث فيتحدث بالسيَر، فأحفظ جميع ما أسمعه، وأذهب إلى البيت فأكتبه.

ولقد وفق لي شيخنا أبو الفضل أبي ناصر ـ رحمه الله ـ وكان يحملني إلى الشيوخ فأسمعني المسند وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يراد مني، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، فناولني ثَبَتَها[3]، ولازمته إلى أن توفي، رحمه الله، فنلت به معرفة الحديث والنقل.

ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً وأقعد حُجزَةَ من الناس إلى جانب الرَّقة فأتشاغل بالعلم[4].

ثم ألهمت الزهد فَسَردتُ الصوم، وتشاغلت بالتقلل من الطعام وألزمت نفسي الصبر فاستمرت، وشمرت ولا زمت، وعالجت السهر[5]، ولم أقنع بفن من العلوم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث وأتبع الزهاد.

ثم قرأت اللغة، ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ، ولا غريباً يقدم إلا وأحضره[6]، وأتخير الفضائل، وكنت إذا عرض لي أمران أقدم في أغلب الأحوال حق الحق[7].

---

(١) رحبة المسجد: ساحته.

(٢) مشعبة: فيها أنواع متعددة من العلوم بل كان يختار الدرس الخاص بعلم واحد.

(٣) الثبت: أي القائمة أو الفهرس المدون فيه مجموع مسموعاته عن شيخه.

(٤) الرقة: هي كل أرض إلى جانب واد ينبسط الماء عليها أيام المد.

(٥) عالجت السهر: مارست وزاولت السهر في الليل.

(٦) يقصد أنه يحضر دروس العلماء والغرباء الذين كانوا يأتون بغداد أيام كانت مقصد العلماء ومركزهم من كل صوب.

(٧) حق الحق: حق الله.

فأحسن الله تدبيري وتربيتي، وأجراني على ما هو الأصلح لي، ودفع عني الأعداء والحساد ومن يكيدني، وهيأ لي أسباب العلم، وبعث إلي الكتب من حيث لا أحتسب، ورزقني الفهم وسرعة الحفظ والخط وجودة التصنيف، ولم يعوزني شيئاً من الدنيا، بل ساق إلَيَّ من الرزق مقدار الكفاية وأزْيَد، ووضع لي من القول في قلوب الخلق فوق الحد[١] وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته. وقد أسلم على يدي نحو من مئتين من أهل الذمة، ولقد تاب في مجالسي أكثر من مئة ألف، وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناه الجهال[٢].

ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نَفَسي من العدو لئلا أُسبَق، وكنتُ أصبح وليس لي مأكل، وأمسي وليس لي مأكل، ما أذلَّني الله لمخلوق قط، ولكنه ساق رزقي لصيانة عرضي، ولو شرحتُ أحوالي لطال الشرح.

وهاأنا قد ترى ما آلت حالي إليه، وأنا أجمعه لك في كلمة واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فانتبه يا بني لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين مادام في الوقت سَعَةٌ، واسْقِ غُصنَك مادامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت فكفى بها عظة، ذهبت لذة الكسل فيها وفاتت مراتب الفضائل.

وقد كان السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ يحبون جمع كل فضيلة ويبكون على فوات واحدة منها.

قال إبراهيم بن أدهم: دخلنا على عابد مريض، وهو ينظر إلى رجليه يبكي، فقلنا: مالك تبكي؟ فقال: ما اغبرّتا في سبيل الله. وبكى آخر، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: على يوم مضى ما صمته وعلى ليلة ذهبت ما قمتها.

واعلم يا بني، أن الأيام تبسط ساعات، والساعات تبسط أنفاساً، وكل نَفَسٍ خِزَانة، فاحذر أن يذهب نفس بغير شيء، فترى في القيامة خزانة فارغة فتندم.

---

(١) نقل أن مجالس ابن الجوزي كان يحضرها المئات...

(٢) إن قطع السالف إشارة من المؤلف إلى توبة من كان يعتني بإطالة سالفه لمظهر من مظاهر الخنوثة التي كانت فاشية في زمانه...

وقد قال رجل لعامر بن عبد قيس: قف أكلمك! فقال: أمْسِكِ الشمس

وقعد قوم عند معروف الكرخي ـ رحمه الله ـ فقال: أما تريدون أن تقوموا، فإن مَلَك الشمس يجرها لا يفتر.

وفي الحديث: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»[١].

فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل!

وقد كان السلف يغتنمون اللحظات، فكان كَهَمْس بن طلق الصريمي ت (٦١هـ) ـ رحمه الله ـ يختم القرآن كل يوم وليلة ثلاث مرات[٢]. وكان أربعون رجلاً من السلف يصلون الصبح بوضوء العشاء. وكانت رابعة العدوية تحيي الليل كله، فإذا طلع الفجر هَجَعَت هجعة خفيفة[٣]، ثم قامت فزعة وقالت لنفسها: النوم في القبور طويل.

ومن تفكر في الدنيا قبل أن يوجد رأى مدة طويلة، فإذا تفكر فيها بعد أن يخرج منها رأى مدة طويلة وعلم أن اللبث في القبور طويل، فإذا تفكر في يوم القيامة علم أنه خمسون ألف سنة، فإذا تفكر في اللبث في الجنة أو النار علم أنه لا نهاية له.

فإذا عاد إلى النظر في مقدار بقائه في الدنيا فرضنا ستين سنة مثلاً، فإنه يمضي منها ثلاثين سنة في النوم[٤]، ونحواً من خمس عشرة في الصبا، فإذا حسب الباقي كان أكثر في الشهوات والمطاعم والمكاسب، فإذا خلص ما للآخرة وجد

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب (٥/ ٥١١).

(٢) قد نقل مثل هذا عن غير واحد من السلف، مع أن النبي ﷺ قال لمن سأله أن يسمح له بقراءة القرآن في أقل من سبعة أيام: «اقرأ القرآن في ثلاث ليال، فمن قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه».

(٣) هجع: نام قليلاً.

(٤) كذا قال ولعله أراد به التقريب فإن الإنسان لا ينام عادة أكثر من ثماني ساعات كحد أقصى كل يوم، وعليه فلا يقضي المرء نصف حياته نائماً كما عبر المؤلف.

فيه من الرياء والغفلة كثيراً فبماذا تشتري الحياة الأبدية، وإنما الثمن هذه الساعات.

ولا يؤيسك يا بني من الخير ما مضى من التفريط، فإنه قد انتبه خلق كثير بعد الرقاد الطويل. فقد حدثني الشيخ أبو حكيم عن قاضي القضاة الشيخ أبي الحسن الدامغاني ت (٥١٣هـ) ـ رحمه الله ـ قال: كنت في صبوتي متشاغلاً بالبطالة غير متلفت إلى العلم، فأحضرني أبي، أبو عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ وقال لي: يا بني لست أبقى لك أبداً، فخذ عشرين ديناراً، وافتح لك دكان خباز وتكسّب، فقلت له: ما هذا الكلام؟ قال: فافتح دكان بزاز. فقلت: كيف تقول لي هذا وأنا ابن قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني؟ قال: فما أراك تطلب العلم! فقلت: اذكر لي الدرس الساعة، فذكر لي، فأقبلت على الاشتغال بالعلم واجتهدت ففتح الله تعالى [عليّ].

وحكى لي بعض أصحاب أبي محمد الحلواني ت (٥٤٦هـ) ـ رحمه الله ـ قال: مات أبي وأنا ابن إحدى وعشرين سنة، وكنت موصوفاً بالبطالة، فأتيت أتقاضى بعض سكان دار قد ورثتها، فسمعتهم يقولون، جاء المدبَّر، أي الربيط[1]، فقلت لنفسي: يقال عني هذا! فجئت إلى والدتي فقلت: إذا أردت طلبي فاطلبيني من مسجد الشيخ أبي الخطاب، ولازمته فما خرجت إلا إلى القضاء، فصرت قاضياً مدة.

(قلت) ورأيته أنا وهو يفتي ويناظر.

فألزم نفسك، يا بني، الانتباه عند طلوع الفجر ولا تتحدث بحديث الدنيا، فقد كان السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ لا يتكلمون في ذلك الوقت بشيء من أمور الدنيا، وقل عند انتباهك من النوم: الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور[2]، الحمد لله الذي يمسك ﴿ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] ثم قم إلى الطهارة، واركع سنة الفجر، واخرج إلى المسجد

---

(١) الربيط: هو المربوط في بيته بانتظار عيشه.

(٢) رواه البخاري من حديث حذيفة، ومسلم من حديث البراء.

(٣) من الآية (٦٥) سورة الحج.

خاشعاً، وقل في طريقك: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا، إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تجيرني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، واقصد الصلاة إلى يمين الإمام.

فإذا فرغت من الصلاة فقل: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير»[1] ـ عشر مرات ـ ثم سبح عشراً، واحمد عشراً، وكبر عشراً، واقرأ آية الكرسي، واسأل الله ـ سبحانه ـ قبول الصلاة.

فإن صح لك[2] فاجلس ذاكراً الله تعالى إلى أن تطلع الشمس وترتفع، ثم صل واركع ما كتب لك، وإن كان ثماني ركعات فهو حسن[3] فإذا أعدت درسك إلى وقت الضحى الأعلى، فصلِّ الضحى ثماني ركعات، ثم تشاغل بمطالعة أو نسخ إلى وقت العصر، ثم عد إلى درسك من بعد العصر إلى وقت المغرب وصل بعد المغرب ركعتين بجزأين، فإذا صليت العشاء فعد إلى دروسك، ثم اضطجع على شقك الأيمن، فسبح ثلاثاً وثلاثين واحمد ثلاثاً وثلاثين، وكبر أربعاً وثلاثين[4]، وقل: «اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك»[5] وإذا فتحت عينيك من النوم فاعلم أن النفس قد أخذت حظها، فقم إلى الوضوء، وصل في ظلام الليل»[6] ما أمكن، واستفتح بركعتين خفيفتين، ثم بعدهما ركعتين بجزأين من القرآن، ثم تعود إلى درس العلم، فإن العلم أفضل من كل نافلة.

---

(١) رواه الترمذي دون لفظ (بيده الخير) وقال: هذا حديث حسن. (الأذكار للنووي ص ٧٠).

(٢) صح لك: أي إن تمكنت وتهيأ لك.

(٣) إشارة إلى صلاة الضحى.

(٤) التسبيح والتحميد والتكبير بهذه الأعداد من حديث متفق عليه. (الحافظ العراقي على الإحياء ١/ ٣٢٦).

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

وعليك بالعزلة[1] فهي أصل كل خير، واحذر من جليس السوء، وليكن جلساؤك الكتب والنظر في سير السلف، ولا تشتغل بعلم حتى تحكم ما قبله، وتَلَمَّح سير الكاملين في العلم والعمل[2] ولا تقنع بالدون، فقد قال الشاعر:

ولم أرَ في عيـوب النـاس شـيئاً ... كـنقص القـادرين علـى التَّمـام

واعلم، أن العلم يرفع الأرذال، فقد كان خلق كثير من العلماء لا نسب لهم يُذكر، ولا صورة تستحسن.

وكان عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ) أسود اللون، مستوحشَ الخِلْقَة وجاء إليه سليمان بن عبد الملك ـ وهو خليفة ومعه ولداه ـ فجلسوا يسألونه عن المناسك، فحدثهم وهو معرض عنهم بوجهه، فقال الخليفة لولديه: قوما ولا تنيا[3] ولا تكسلا في طلب العلم، فما أنسى ذلّنا بين يدي هذا العبد الأسود.

وكان الحسن البصري (ت ١١٨هـ) مولى ـ أي مملوكاً ـ وابن سيرين (ت ١١٠هـ) ومكحول بن أبي مسلم (١١٢هـ) وخلق كثير [موالي]، وإنما شرفوا بالعلم والتقوى.

واجتهد، يا بني في صيانة عرضك من التعرض لطلب الدنيا والذل لأهلها، واقنع تعزّ، فقد قيل: من قنع بالخبز والبقل لم يستعبده أحد.

ومر أعرابي على البصرة، فقال: من سيد هذه البلدة؟ قيل له: الحسن البصري، قال: وبم سادهم؟! قالوا: لأنه استغنى عن دنياهم وافتقروا إلى علمه.

واعلم يا بني، أن أبي، كان موسراً وخلّف ألوفاً من المال، فلما بلغتُ دفعوا لي عشرين ديناراً ودارين، وقالوا لي: هذه التركة كلها، فأخذت الدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم، وبعت الدارين، وأنفقت ثمنها في طلب العلم، ولم يبق

---

(١) الأصل هو مخالطة الناس للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحضور الجمع والجماعة، وأما ما ورد بشأن الترغيب في العزلة فإنما ذلك في ظروف خاصة كالفتن ونحوها.

(٢) أي اقرأ في حكايات وأفعال العلماء والصالحين وهم من يجب الاقتداء بهم.

(٣) لا تنيا: لا تضعفا ولا تفترا.

لي شيء من المال، وما ذَلَّ أبوك في طلب العلم قط، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوُعَّاظ، ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً قط، وأموره تجري على السَّدَاد ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

يا بني! ومتى صحت التقوى رأيت كل خير، والمتقي لا يرائي الخلق ولا يتعرض لما يؤذي دينه، ومن حفظ حدود الله حفظه الله.

قال رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظ الله، يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»[1].

واعلم يا بني، أن يونس عليه السلام لما كانت ذخيرته خيراً، نجا بها من الشدة، قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣].

وأما فرعون فلما لم يكن له ذخيرة خير لم يجد في شدته مخلصاً فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ [يونس: ٩١]. فاجعلْ لك ذخائرَ خيرٍ من تقوى تجدْ تأثيرها.

وقد جاء في الحديث: «ما من شاب اتقى الله في شبابه إلا رفعه الله في كبره».

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3].

واعلم، أن أوفى الذخائر غض الطرف عن مُحَرَّم[4]، وإمساك اللسان عن فضول كلمة[5]، ومراعاة لَحد[6]، وإيثار الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هوى النفس، وقد عرفت حديث الثلاثة الذين دخلوا إلى غار فانطبقت عليهم صخرة، فقال

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي.

(٢) الآية (٢٢) من سورة يوسف.

(٣) الآية (٩٠) من سورة يوسف.

(٤) أي عدم النظر إلى الأمور المحرمة أو اقتراف العمل المحرم.

(٥) فضول كلمة: أي الكلام اللغو.

(٦) مراعاة لحدود الله وأحكامه بعدم تجاوزها.

أحدهم: «اللهم إنه كان لي أبوان وأولاد فكنت أقف بالحليب على أبوي أسقيهما قبل أولادي، فإن كنت فعلت ذلك لأجلك فأفرج عنا، فانفرج ثلث الصخرة، وقال الآخر: اللهم إني استأجرت أجيراً فَتَسَخّط[1] أجره فاتجرت به، فجاء يوماً فقال: ألا تخاف الله وتعطيني أجرتي؟ فقلت: انظر إلى تلك البقر ورعاتها فخذها، فإن كنت فعلت ذلك لأجلك ففرج عنا، فانفرج ثلثا الصخرة، فقال الآخر: اللهم إني علقت بنت عم لي فلما دنوت منها قالت: اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت فعلت ذلك لأجلك ففرج عنا، فرفعت الصخرة وخرجوا»[2].

ورئي سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) ـ رحمة الله عليه ـ في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: ما كان إلا أن وضعت في اللحد، فإذا أنا بين يدي رب العالمين، فدخلت فإذا أنا بقائل يقول: سفيان! قلت: سفيان، قال: تذكر يوم آثرت الله على هواك؟ قلت: نعم، فأخذتني صواني النثار في الجنة[3].

وينبغي أن تسمو همتك إلى الكمال، فإن خلقاً وقفوا مع الزهد، وخلقاً تشاغلوا بالعلم، وندر أقوام جمعوا بين العلم الكامل والعمل الكامل.

واعلم أني قد تصفحت التابعين ومن بعدهم، فما رأيت أحظى بالكمال من أربعة أنفس: سعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ)، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

وقد كانوا رجالاً، وإنما كانت لهم همم ضعفت عندنا، وقد كان في السلف خلق كثير لهم هِمَمٌ عالية، فإذا أردت أن تنظر إلى أحوالهم، فانظر في كتاب (صفة الصفوة)[4]، وإن شئت تأمل أخبار سعيد، والحسن، وسفيان، وأحمد، رضي الله عنهم، فقد جمعت لكل واحد منهم كتاباً.

وقد علمت يا بني، أني صنفت مئة كتاب[5]، فمنها في التفسير الكبير:

---

(١) تسخط أجره: أي اعتبره قليلاً وغير كاف.

(٢) رواه البخاري ومسلم مع اختلاف في اللفظ.

(٣) صواني جمع صينية: وهي الأواني ـ والنثار: ما ينثر في الأعراس.

(٤) هو كتاب للمؤلف في تراجم الرجال وقد طبع في حيدرأباد ـ الهند سنة (١٣٥٥هـ).

(٥) في آخر حياته فاقت كتبه هذا العدد.

عشرون مجلداً[1] والتاريخ: عشرون مجلداً، وتهذيب المسند: عشرون مجلداً، وباقي الكتب بين كبار وصغار يكون خمسة مجلدات وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر، كفيتك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب، وجمع الهمم في التأليف فعليك بالحفظ، وإنما الحفظ رأس المال، والتصرف ربح، واصدق في الحالين في الالتجاء إلى الحق ـ سبحانه ـ فراع حدوده. قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[2] ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[3]، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[4].

وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به، فإن الداخلين على الأمراء والمقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم فَمنِعُوا البركة والنفع به.

وإياك أن تتشاغل بالتعبد من غير علم، فإن خلقاً كثيراً من المتزهدين المتصوفة ضلوا طريق الهدى إذ عملوا بغير علم.

واستر نفسك بثوبين جميلين لا يشهرانك بين أهل الدنيا برفعتهما، ولا بين المتزهدين بضعتهما، وحاسب نفسك عند كل نظرة وكلمة وخطوة فإنك مسؤول عن ذلك، وعلى قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السامعون، ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل الماء عن الحجر.

فلا تعظنّ إلا بنية ولا تمشينّ إلا بنية، ولا تأكلنّ لقمة إلا بنية ومع مطالعة أخلاق السلف ينكشف لك الأمر[5].

وعليك بكتاب (منهاج المريدين)[6] فإنه يعلمك السلوك، واجعله جليسك

---

(١) وهو كتاب المغني.

(٢) الآية ٧ من سورة محمد.

(٣) الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٤٠ من سورة البقرة.

(٥) أي لا تعظ إلا بنية العمل ولا تمش إلا بنية السعي فيما يرضي الله ولا تأكل إلا بنية حفظ الصحة.

(٦) لعله كتاب «منهاج القاصدين في أربعة مجلدات» أو هو «إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين» من مجلد واحد.

ومعلمك، وتلمّح كتاب (صيد الخاطر) فإنك تقع بواقعات تصلح لك دينك ودنياك، وتحفظ كتاب (جُنة النظر) فإنه يكفي في تلقيح فهمك للفقه، ومتى تشاغلت بكتاب (الحدائق)[1] أطْلَعَكَ على جمهور الحديث، وإذا التفت إلى كتاب (الكشف)[2] أبان لك مستور ما في الصحيحين من الحديث، ولا تتشاغلن بكتب التفسير التي صنفتها الأعاجم، وما ترك (المغني) و(زاد المسير) لك حاجة في شيء من التفسير، وأما ما جمعته تلك من كُتب الوعظ[3] فلا حاجة بعدها إلى زيادة أصلاً.

وكن حسن المداراة للخَلْق مع شدة الاعتزال عنهم، فإن العزلة راحة من خلطاء السوء، ومبقية للوقار، فإن الواعظ ـ خاصة ـ ينبغي له أن لا يرى مبتذلاً ولا ماشياً في السوق ولا ضاحكاً، ليحسن الظن به، فينتفع بوعظه، فإذا اضطررت إلى مخالطة الناس فخالطهم بالحلم عنهم، فإنك إن كشفت عن أخلاقهم لم تقدر على مداراتهم.

وأدِّ إلى كل ذي حق حقه من زوجة وولد وقرابة، وانظر كل ساعة من ساعاتك بماذا تذهب، فلا تودعها إلا إلى أشرف ما يمكن، ولا تهمل نفسك وعودها أشرف ما يكون من العمل وأحسنه، وابعث إلى صندوق القبر ما يسرك يوم الوصول إليه كما قيل:

يـا مَـنْ بِـدُنْيَاهُ اشـتغلْ ... وغـرَّه طـولُ الأمـلْ
المـوتُ يـأتي بغتـةً ... والقـبرُ صـندوقُ العمـلْ

وراع عواقب الأمور، ليَهُن عليك الصبر عن كل ما تشتهي وما تكره، وإن وجدت من نفسك غفلة، فاحملها إلى المقابر، وذكرها قرب الرحيل، ودبر أمرك ـ والله المدبر ـ في إنفاقك، من غير تبذير لئلا تحتاج إلى الناس، فإن حفظَ المال من الدِّين، ولأن تخلف لورثتك خير من أن تحتاج إلى الناس.

---

(١) كتاب الحدائق في الحديث في (٣٤) جزءاً.

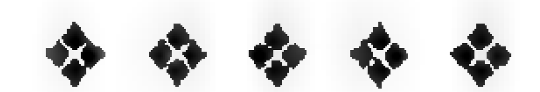
(٢) اسم الكتاب (الكشف لمشكل الصحيحين) في أربعة مجلدات.

(٣) وهي كثيرة ومن أشهرها لدى المؤلف: «المدهش» و«تلبيس إبليس».

يا بني، واعلم أننا من أولاد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وأبونا القاسم ابن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وأخباره موثقة في كتاب (صفة الصفوة)، ثم تشاغل سلفنا بالتجارة والبيع والشراء[1]، فما كان من المتأخرين مَنْ رزق همة في طلب العلم غيري، وقد آل الأمر إليك، فاجتهد أن لا تُخيِّب ظني فيما رجوته فيك ولك، وقد أسلمتك إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإياه أسأل أن يوفقك للعلم والعمل.

وهذا قدر اجتهادي في وصيتي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله مزيد الحامدين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم



(١) جاء في ترجمة ابن الجوزي في مقدمة تحقيق كتابه (زاد المسير) ١/ ٢١: «وكان أهله تجاراً في النحاس، ولهذا يوجد في بعض سماعاته القديمة: ابن الجوزي الصفار».

يا بنيَّ أحبوا مُحَمّداً ﷺ

أوصى لسان الدين بن الخطيب[1] أولاده فقال[2]:

الحمد لله الذي لا يروعه الْحِمام[3] المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يبغته الفراق المعتوب[4]، ملهم الهَدْيِ الذي تطمئن به القلوب، وموضح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة من قِسْم الوجوب لاسيما للولي المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ...﴾[5] و﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ..﴾[6].

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله، أكرم من زُرَّتْ على نوره جيوب الغيوب، وأشرف من خُلعت عليه حُلل المهابة والعصمة، فلا تَقْتَحمه العيون، ولا تَصِمُه العيوب، والرضَا عن آله وأصحابه المثابرين على لسان الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والاقتداء الموصل المرغوب، والعز والأمن من اللُغوب[7].

---

(١) لسان الدين بن الخطيب: هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله (٧١٣ـ٧٧٦هـ=١٣١٣ـ١٣٧٤م) وزير مؤرخ أديب نبيل. (معجم الأعلام: ص ٧٤٠).

(٢) نفح الطيب (ج٤ص ٤١٩ ـ ٤٢٦).

(٣) الحمام: الموت.

(٤) يريد أن يقول: إن الله حي لا يموت ولا يتأثر بالحوادث التي تجري على البشر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

(٥) ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

(٦) الآية (١٣٢) من سورة البقرة.

(٧) اللغوب: التعب.

وبعد، فإني لما علاني المشيب بقمَّته، وقادني الكِبرُ بِرُمَّته، وادكرت الشباب بعد أمته[1]، أسفت لِمَا أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رَعْيُه، وتعلق بعيني سَعْيُه وأمَّلتُ أن تتعدَّى إليَّ ثمرة استقامته، وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري إن سلك، وعسى أن لا يكون ذلك على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثةَ الْوَلَد، وثمرات الخَلَد[2]، بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يمنَّ عليَّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قَبْل التَّلف، وأن يرزق خَلَفهم التمسك بهدي السَّلف، فهو ولي ذلك والهادي إلى خير المسالك:

اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضُّلاَّل، وبرضاه تُرفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأُخْلِفَت الآمَال، وتبرَّأت من يمينها الشمال، أنّي مُوَدِّعكم وإن سالمني الرَّدى[3]، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا مما بدا، فكيف وأدوات السفر تُجمع، ومنادي الرَّحيل يُسْمع، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر، وعُجالة مقتصر، ورَتيمة[4] تعقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة وِاعٍ مُبْصر، تتكفّل لكم بحسن العواقب من بَعْدي، وتوضح لكم من الشفقة والحنوِّ قصدي، حسبما تَضَمَّن وعدُ الله من قَبْلِ وعدي، فهي أَرُبُكُم الذي لا يتغيَّرُ وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رفَّ عليكم سقفه، وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبنشاطكم قد كسل، واستبدل الصَّاب[5] من العسل، ونصولُ الشيب تروع بأسل[6]، لا بل السَّام[7] من كل حدب نَسَل، والمعاد اللحد، ولا تسل.

---

(١) الأمة: الوقت والحين.

(٢) الخَلَد: بالٌ ونَفْس.

(٣) الرَّدى: الموت.

(٤) رتيمة: خيط يربط في الإصبع للتذكير بشيء معين.

(٥) الصَّاب: شجر مر له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة.

(٦) الأسل: الرمح المسنون.

(٧) السَّامُ: الموت.

فبالأمس كنتم فراخ حَجْر[1]، واليوم أبناء عسكر مَجْر[2]، وغداً شيوخ مضيعة وهَجْر، والقبور فَاغِرَةٌ، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم من لم يُتَّعظ به في أمر، وقال «بيدي لا بيد عمرو»[3]، فاقتنوها من وصية، ومرام في النصح قَصِيَّة، وخُصُّوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا.

وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هَمَلاً، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ولا رضي الدنيا منزلاً، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلاً، ولتُلَقَّنُوا تلقيناً، وتعلموا علماً يقيناً، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش الترابَ جنبي، ويسح انسكابي، وتهرول عن المصلّى ركابي، أحرص مني على سعادة إليكم تُجْلب، أو غاية كمال بسببكم تراد وتُطْلب، حتى لا يكون في الدِّين والدنيا أوْرَفَ مِنكم ظِلاً، ولا أشرفَ مَحَلاً، ولا أغبطَ نَهَلاً وعَلاً، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان، وتستلمحوا صبح نصحي وقَدْ بان، وسأعيد عليكم وصية لقمان:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[4] ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾[5]. وأعيد وصية خليل الله وإسرائيله[6]، حكم ما تضمَّنه محكم تنزيله: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

---

(١) حَجْر: حضن.

(٢) المجْر: الكثير من كل شيء. ويقصد أنكم اليوم جمع من الشباب.

(٣) بيدي لا بيد عمرو: مقولة قالتها الزباء حين انتحرت وأبت أن تستسلم لعمرو بن عدي.

(٤) الآية (١٣) من سورة لقمان.

(٥) الآيات ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ من سورة لقمان.

(٦) إسرائيل: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

مُّسْلِمُونَ﴾[1]. والدين الذي اصطفاه، وأكمله ووفّاه، وقرّره مُصطفاه، من قبل أن يتوفّاه، إذا أُعْمِلَ فيه انتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهما مقرَّر ومستمد من عقل أو نقل محرر، والعقل متقدم، وبناؤُه مع رفض أخيه متهدم، فالله واحد أحد، فَرْد صَمَد، ليس له والد ولا ولد، تنزه عن الزمان والمكان، وسبقَ وجوده وجود الأكوان، خالق الخَلْق وما يعلمون، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسْألون، الحيُّ العليم المدبِّر القدير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، أرسل الرسل رحمة، لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء، وتوجُّه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء، مؤيَّدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء، ثم ختم ديوانهم بِنَبيٍّ مِلَّتنا[2] المرعية الهمل[3]، الشاهدة على الملل، فتلخصت[4] الطاعة، وتعيّنت الإمرة المطاعة، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة، ثم إن الله تعالى قَبَضَهُ، إذْ كان بشراً، وترك دينه يضم من الأُمَّة نشراً، فمن تبعه لحق به، ومن تركه نُوِّط عنه في منسبه، وكانت نجاته على قدر سببه.

روي عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: «تركتُ فيكم ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدِي: كتاب الله وسُنَّتِي، فَعَضُّوا عليهما بالنَّواجِذِ»[5] فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد[6]، ومشفق شفقة والد، واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه، وَعُوا مراشد هديه، فيا فَوْزَ واعيه، وَصِلُوا السبب بسببه، وآمنوا بكل ما جاء به،

---

(١) الآية ١٣٢ من سورة البقرة.

(٢) المِلَّة: الشريعة أو الدين.

(٣) الهمل: التي كثر وفاض خيرها.

(٤) تلخصت: تبيَّنت وشرحت.

(٥) هو من حديث العرباض بن سارية السلمي الصحابي عن الرسول، وعضوا عليهما بالنواجذ أي تمسكوا بهما كما يتمسك العاض بجميع أضراسه، وروي الحديث «فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين عضوا عليها بالنواجذ» (أسد الغابة: ٣/ ٣٩٩).

(٦) ناصح: هو رسول الله ﷺ الذي نصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده.

مجملاً أو مفصلاً على حسبه، وأوجبوا التجلة[1] لصحبه الذين اختارهم الله تعالى لصحبته، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته، واشملوهم بالتوقير، وفضّلوا منهم أُولي الفضل الشهير، وتبرَّؤوا من العصبية التي لم يَدْعُكُم إليها داعٍ، ولا تَعِ التشاجرَ بينهم أُذنُ واعٍ، فهو عنوان السَّداد، وعلامة سلامة الاعتقادِ، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء المِلَّة، وأئمتها الجِلّة، فهم صَقَلَةُ نصولهم، وفُرُوعٌ ناشئةٌ من أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم.

واعلموا أنني قطعت في البحث زماني، وجعلت النظر شأني، منذ براني[2] الله تعالى وأنشاني، مع نبل يعترف به الشاني[3]، وإدراك يسلّمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط وَرَق، ولا مصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلف فطام، ولا مقتحم بحرٍ طام، إلا وغايته التي يقصدها قد نضلتها الشريعة وسبقتها، وفَرَعَتْ ثنيتها وارتقتها[4]، فعليكم بالتزام جادتها السابلة، ومصاحبة رفقتها الكاملة، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة، والله تعالى يقول ـ وهو أصدق القائلين ـ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[5] وقد علت شرائعه، وراع الشكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، وابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الآبدين، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة، والله أصدق الواعدين، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما وَرِثَ الأولاد عن الوالدين، اللهم قد بلَّغْت فأنت خير الشاهدين. فاحذروا المعاطب[6] التي توجب في الشقاء الخلود، وتستدعي شَوْهَ الوجوه، ونضج الجلود، واستعيذوا برضى الله من سخطه، واربَؤُوا بنفوسكم عن غَمْطِهِ، وارفعوا آمالكم عن القنوع

---

(١) التجلة لصحبه: أي التعظيم لصحابة رسول الله رضي الله عنهم.

(٢) برأ: خلق.

(٣) الشاني: الشانئ: المبغض.

(٤) يقصد أن الذين كتبوا عن سعادة الإنسان سبقتهم الشريعة في ذلك، وتفوقت عليهم.

(٥) الآية ٨٥ من سورة آل عمران.

(٦) المعاطب: المهالك.

بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العَرَض الزائل ائتلافكم، واقتنعوا منه بما تيسر، ولا تأسَوْا على ما فات وتعذّر، فإنما هي دُجنة [١] ينسخها الصباح، وصفقة يتعاقبها الخسار أو الرّباح، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها، وكفكفوا الشبه أن تدنو إليها.

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤه[٢] عمل، وكل ما سوى الراعي هَمَل[٣]، وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت أمل، وتمسكوا بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة، وتفكروا في آياته ومعانيه، وامتثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتأوّلوه ولا تغلوا فيه، وأشْرِبوا قلوبكم حبَّ من أُنزل على قلبه[٤]، وأكثروا من بواعث حبه، وصونوا شعائر الله صون المحترم، واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

اللهَ اللهَ في الصلاة ذريعة التجلّة، وخاصة المِلّة، وحاقنة الدم، وغنى المستأجر المستخدم، وأُمِّ العبادة، وحافظة اسم المراقبة لعالمِ الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر، وإن عرض الشيطان عرضهما[٥]، ووطّاً للنفس الأمارة سماءهما وأرضهما، والوسيلة إلى بلِّ الجوانح ببرود الذكر، وإيصال تُحْفَة[٦] الله إلى مريض الفكر، والشاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا طَبَع[٧]، والخير الذي كلٌّ ما سواه له تَبَعٌ، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية، وتؤثروا على العلية الدنيَّة، فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس[٨]، والفَلَكُ بها من أجلكم لا يُحَبّس،

---

(١) دجنة: ظلمة.

(٢) رفأ: أصلح.

(٣) همل: مُهْمل متروك.

(٤) وهو الرسول محمد ﷺ.

(٥) عرضهما: عرض الفحشاء والمنكر.

(٦) تحفة: شيء نفيس وهي هنا الصلاة.

(٧) الدنس في الجسم أو الخُلُق، وهو أيضاً الكسل.

(٨) تنبس: تسرع.

وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها، وأتبعوها النوافل ما أطلقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقت الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح من إضاعة رأس المال، وذلك أحرى بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البَعْضِ البَعْضَ والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل، وشرط لمشروطه محصل فاستوفوها، والأعضاء نظفوها، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها، والحجول والغرر فأطيلوها، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها، فالبناءُ بأساسه، والسيف بمراسه.

واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال، واستعاض صدأه بصِقال، وإن تراخى قهقر البّاع، وسرقته الطِّبَاعُ، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع.

والزكاة أختُها الحبيبةُ ولِدتُها القريبة[1]، مفتاح السعادة بالعرض الزائل، وشكران المسؤول على الضدّ من درجة السائل، وحقّ الله تعالى في مال من أغناه لمن أجهده في المعاش وعنّاه، من غير استحقاق ملأ يده وأخلى يد أخيه، ولا علة إلا القدر الذي يخفيه، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، في اختيار عرضها ونتاجها، واستَحْيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشيطان كلما عذل[2]، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون، فوهب وأقدر، وأورد بفضله وأصدر، ليرتب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نَواله.

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلْفى، الممحوضة لمن يعلم السر

---

(١) الزكاة هي الركن الثالث من الإسلام وهي تأتي بالترتيب بعد الصلاة فهي أختها.

(٢) عذل: لام.

وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد، وإيثار السُّهاد على المهادِ[1]، وإن وسع الاعتكاف فهو من سنته المرعية، ولواحقه الشرعية، فبذاك تحسن الوجوه، وتحصل من الرقة على ما ترجوه [2]، وتذهب قسوة الطباع، ويمتد في ميدان الوسائل الباع.

والحج ـ مع الاستطاعة ـ الركن الواجب، والفرض على العينِ، لا يحجبه الحاجب، وقد بين رسول الله ـ ﷺ ـ قدره فيما فَرَض عن ربه وسنَّهُ، وقال: ليس له جزاء عند الله إلا الجنة، ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممن يسمع نفيره ويطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه[3].

هذه عمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناوئكم ظاهرين[4]، وتلقوا الله لا مبدِّلين ولا مغيِّرين، لا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين.

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب[5]، فعليكم بالعلم النافع، دليلاً بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللّباب، والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[6].

والعلم وسيلة النفوس الشريفة، إلى المطالب المنيفة[7]، وشرطه الخشية لله

---

(١) السهاد: الأرق وترك النوم. المهاد: الفراش وهو يريد هنا تفضيل السهر في الاعتكاف والعبادة عن النوم على الفراش.

(٢) الرقة: رقة القلب وليونة الطباع.

(٣) الجهاد في سبيل الله يكون بالنفس والمال.

(٤) ظاهرين: منتصرين.

(٥) الانتقاب: الاختفاء.

(٦) الآية (٩) من سورة الزمر.

(٧) المنيفة: العالية.

تعالى والخيفَة، وخاصة الملأ الأعلى، وصفه الله في كتبه التي تُتْلى، والسبيل في الآخرة إلى السعادة، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة، والذخر الذي قليله ينفع، وكثيره يشفع لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدو المناصب، ولا يبتزه الدهر إذا نال، ولا يستأثر به البحر إذا هال، ومن لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله، وقليل وإن جَمّ[1] ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطى حسابكم، فالتمسوه لبنيكم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودَرْسِه، واجعلوا طباعهم ثرى لغرسه، واستَسْهِلُوا ما ينالهم من تعب من جرّاه، وسَهر يهجرُ له الجفنُ كراهُ، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تعزل، وتُحلّوهم مثابة رفعة لا يُحطُّ فارعها ولا يُستنزل، واختاروا في العلوم التي يتعقبها الوقت، فلا يناله في غيره المقت.

وخير العلوم علوم الشريعة، وما نجم بمنابتها المريعة، من علوم لسان[2] لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا تضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنّما هي آلات لغير[3]، وأسبابٌ إلى خير منها وخير، فمن كان قابلاً للازدياد، وألفى فهمه في انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه[4]، ثم الشروع في أصول الفقه، فهو العلم العظيم المنّة، المهدي كنوز الكتاب والسنّة، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلّة، والتدرب في طرقِ النظر وتصحيح الأدلة، وهذه هي الغاية القصوى في الملّة، ومن قَصُرَ إدراكه عن هذا المرمى، وتقاعد عن التي هي أسمى، فليروِ الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه.

وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة[5]، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً، ورأياً ركيكاً، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون،

---

(١) جم: كثر.

(٢) علوم لسان: اللغة العربية.

(٣) آلات لغير: اللغة العربية هي آلة ووسيلة لتعلم العلوم الأخرى.

(٤) سقيمه: ضعيفه.

(٥) الفنون الذميمة: مثل الفلسفة والجدال ومما يدل على ذلك ذكره حال ابن رشد.

وتطويق الاحتقار، وسمة الصَّغار، وخمول الأقدار، والخَسْف من بعد الإبدار، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجِدال، هذا ابن رشد قاضي المصر ومفتيه، وملتمس الرشد ومُوليه، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها والتورُّط في ازدحامها، ولا تخلطوا جامكم بجامها إلا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فِلاَحة، وعلاج. يرجع على النفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور وضَرَمٌ مسجور، وممقوت مهجور. وَأْمُروا بالمعروف أمراً رفيقاً، وانهوا عن المنكر نهياً حرياً بالاعتدال حقيقاً، واغبطوا من كان من سِنَةِ الغفلة مفيقاً، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنهُ حتى لا تسلكوا منه طريقاً.

وأطيعوا أمر من ولاهُ الله من أموركم أمراً، ولا تقربوا من الفتنة جَمْراً، ولا تُداخِلوا في الخلاف زيداً وعَمْراً.

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين، وأهم ما أَضْرى[1] عليه الآباء ألسنة النبيين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومن أكثرَ من شيء عُرِف به.

وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُوارَى[2]، والسوأةُ التي لا يُرتاب في عارها ولا يُتمارى، وأقلُّ عقوبات الكذاب بين يديْ ما أعد الله له من العذاب، أن لا يقبل صدقه إذا صدق، ولا يعوَّل عليه إن كان بالحق نَطَق.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم، وفي وجه الديانة كُلُوم، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها، أداءُ الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دَيْنَ الخيانة، ولا توجدوا للغدر قَبُولاً، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. ولا تستأثروا بكنز ولا خَزنٍ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حَزنٍ[3]، ولا تبخسوا

---

(١) أضرى: قوى أو درب.

(٢) لا توارى: لا تستر.

(٣) حزن: مكان مرتفع.

الناس أشياءهم في كيل أو وزن، واللهَ اللهَ أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أن الإنسان في فُسحة ممتدة، وسبل الله تعالى غير مُنسدة، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانة، ويغمس في الحرام يده أو لسانه، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سَنَناً قويماً، وجَلَّى من الجهل والضَّلال ليلاً بهيماً: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاقِ مَنْ كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه، لو لم تتلقَّ نور الله الذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يُزْنى بأهله، والله قد أعد للزاني عذاباً وبيلاً، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[2].

والخمر أم الكبائر ومفتاح الجرائم والجرائر[3]، واللهو لم يجعله الله في الحياة شرطاً، والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوّغ وأعطى، وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد، والله تعالى قد جعلها رجساً[4] محرماً على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السَّداد.

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهي الدين، والله تعالى يقول: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5] وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[6] في الكتاب المبين.

---

(١) الآية (٩٣) من سورة النساء.
(٢) الآية (٣٢) من سورة الإسراء.
(٣) الجرائر: الذنوب.
(٤) رجس: عمل قبيح.
(٥) الآية (٢٧٨) من سورة البقرة.
(٦) الآية (٢٧٩) من سورة البقرة.

ولا تأكلوا مال أحد بغير حق يبيحه، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، ولا يكل خياره إلا للثقة من خدمه، ولا تلجؤوا إلى المتشابه إلا عند عدمه، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع، والمحافظ عليه مغبوط، وإياكم والظلم، فالظالم ممقوت بكل لسان، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان، والنميمة فساد وشتات، ولا يبقى عليه متات[1]، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة قتات»[2].

واطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود، والبخل فما رئي البخيل وهو مودود، وإياكم وما يُعتذر منه، فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها، ولا تفقّدوا أنفسكم مع الساعات، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات، ورقوا على ذوي الزمانات والعاهات، وتاجروا بالصدقة يربحكم في البضاعات، وعوّلوا عليه وحده في الشدائد، واذكروا المساكين إذا نصبتم الموائد، وتقربوا إليه باليسير من ماله، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أولي الأرحام والوشائج البادية الالتحام، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، وتفسد السر والجهر، والرُّشا[3] فإنّها تحطُّ الأقدار، وتستدعي المذلة والصغار[4]، ولا تسامحوا في لعبة قمر، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر، وصونوا المواعيد من الإخلاف، والأيْمان من حِنْث الأوْغادِ والأجلاف[5]، وحقوق الله تعالى من الازدراء والاعتساف، ولا تلهجوا بالآمال العجاف[6]، ولا تكلفوا بالكهانة والإرجاف.

---

(١) متات: توسل وتقرب.

(٢) القتات: النمام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون.

(٣) الرشا: جمع رشوة ما يعطى بدون حق لقضاء مصلحة أو إحقاق باطل أو إبطال حق.

(٤) الصَّغَار: الهوان.

(٥) جلف: غليظ الطبع أحمق.

(٦) عجاف: ضعيفة واهية.

واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتعاد. واعلموا أن الله سبحانه بالمرصاد، وأن الخلق زرع وحصاد، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم، واحذروا القواطع عن السعادة كما تحذر السموم. واعلموا أن الخير أو الشر في الدنيا محال أن يدوم، وقابلوا بالصبر أذيَّة المؤذين، ولا تَقارضوا مقالات الظالمين، فالله لمن بُغِيَ عليه خير الناصرين، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت، ولا تضجوا للأمراض إذا أعضلت، فكل مُنْقَرِضٍ حقير، وكل مُنْقَضٍ وإن طال قصير، وانتظروا الفَرَج، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرَج، وأوسعوا بالرجاء الجوانح، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح.

وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء، والجؤوا إليه في البأساء والضراء، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشّارد، ويَعْذُب الوارد، وأسهموا [1] منها للمساكين وافْضُلوا عليهم، وعيِّنوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار: «يا عائشة، أحسني جوار نعم الله، فإنها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم» ولا تطغوا في النعم فَتُقَصِّروا عن شكرها، وتلفكم الجهالة بسكرها، وتتوهموا أن سعيكم جلبها، وجدكم حَلَبها، فالله خير الرازقين، والعاقبة للمتقين، ولا فعل إلا لله إذا نُظر بعين اليقين، واللهَ اللهَ لا تنسَوا الفضل بينكم ولا تُذْهِبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كل منكم لأخيه، ما يشتد به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبر، ومراعاة في علانية وسر، وللإنسان مزية لا تجهل، وحق لا يهمل. وأظهروا التعاضد [2] والتناصر، وصلوا التعاهد والتزاور، تُرْغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء [3]، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة [4]، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان، وطاعة النساء شرُّ ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمراً فاحْقِروه.

---

(١) اجعلوا للمساكين سهماً (نصيباً).

(٢) التعاون والمساندة.

(٣) الأوداء: الأصدقاء.

(٤) تهارش: تقاتل.

والله الله لا تنسوا مقارضة سَجْلي[١]، وبروا أهل مودتي من أجلي، ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعوقاً على الانتقال، أمام النُّوب الثقال[٢]، وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في طلبه أولى، وازهدوا جهدكم، في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها، ونفعها لا يقوم بضرها، وأعقاب من تقدم شاهدة، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة، ومن بُلِيَ بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلل من المال، وليحذر معاداة الرجال، ومزلات الإدلال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء السر، وسكر الاغترار، ولْيَصُن الدِّيانة، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة، ويَسِرْ من رضى الله على أوضح الطرق، ومهما اشتبه عليه أمران، قصد أقربهما إلى الحق، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان والزعزع تُسالِم اللَّدْن[٣] اللطيف من الأغصان، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً، واستظهاراً على الخطوب[٤] وغلاباً، فذلك ضرر المروءات والأقدار، داع إلى الفضيحة والعار، ومنِ امتُحن بها منكم اختياراً أو جُبِرَ عليها إكراهاً وإيثاراً، فَلْيَتَلَقَّ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة[٥]، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتَوَقُّع عَزْل، وإدالة بإزاءِ بيع جِدٍ بهزل، ومزلة قدم، واستتباع ندم، ومآل العمر كله موت ومعاد، واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه.

هذه ـ أسعدكم الله ـ وصيتي التي أصدرتها، وتجارتي التي لربحكم أَدَرْتُها[٦]

---

(١) سَجْلٌ: نصيب من الشيء وهنا سجلي (عطائي وإحساني).

(٢) النّوب: المصائب.

(٣) اللدن: اللين.

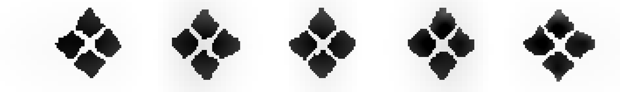
(٤) الخطوب: الابتلاء والمصائب.

(٥) إحنة: ضغينة.

(٦) أدرتها: فعلتها.

فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستفشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القِيَم، استكثرتم من بواعث النَّدم.

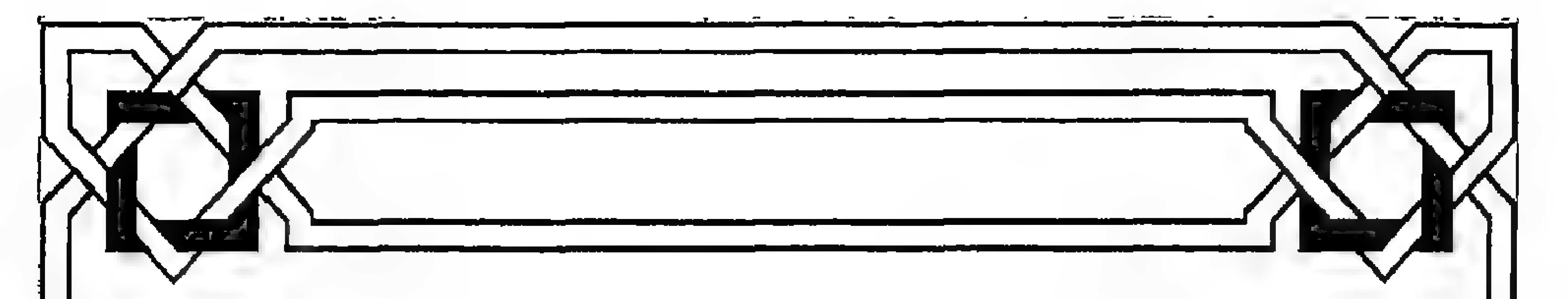
ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أن تقوى الله فذلكة[1] الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم في كل حال، فالدنيا مناخ[2] ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء دار البقاء، جعل الله من وراء خطته النجاة، ونَفَّقَ بضائعها المزجاة[3]، بلطائفه المرتجاة، والسلام عليكم من حبيبكم المودِّع، والله سبحانه يَلأَمُه حيث شاء من شمل متصدِّع، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب، ورحمة الله وبركاته.



(١) فذلكة: خلاصة.

(٢) مناخ: مكان.

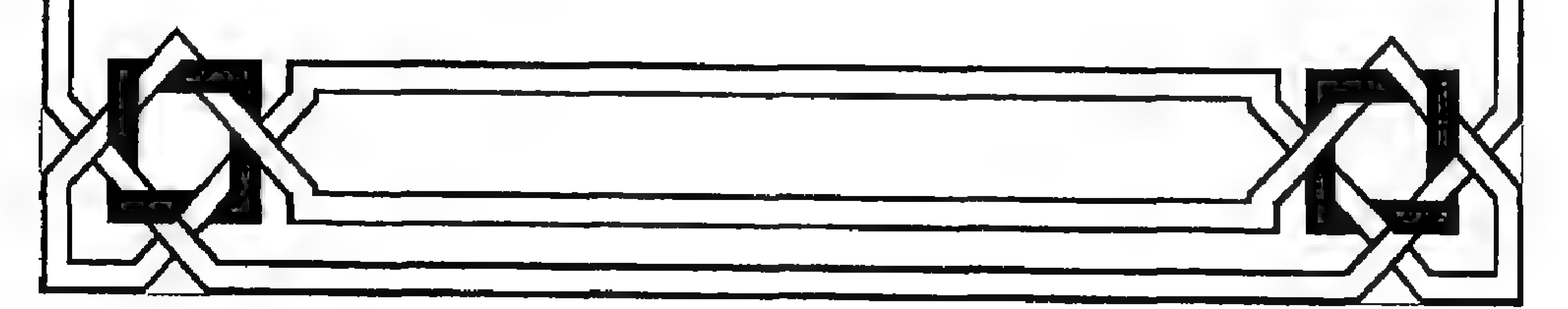
(٣) المزجاة: القليلة المتواضعة.



الفصل الخامس

وصايا العلماء والأدباء والمربين (المعاصرين) لأبنائهم

- ـ اجتهد أن يكون لك هواية (وصية أحمد أمين).
- ـ حُبُّ المعلمين طريق النجاح (وصية أحمد حافظ عوض).
- ـ اقطع وقتك بالكتاب (وصية البدوي الملثم).
- ـ كن محباً لله بلا شرط (وصية الشيخ ملا رمضان البوطي).
- ـ صياغة الأهداف علم وفن (وصية الدكتور فاخر عاقل).
- ـ الطريق التي مشيت (وصية عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري).



اجتهد أن يكون لك هواية

قال أحمد أمين يوصي ابنه[1]:

◆ أيْ بُنيَّ!

لا تظنَّ أنك تستطيع أن تكون مهندساً عظيماً، بقراءتك في الهندسة وحدها، ولا أن يكون زميلك عظيماً بقراءته في الطبِّ وحْدَهُ....

فالعقل وَحْدَةٌ، وثقافتُهُ في أي موضوع آخر تفيد في الموضوعْ الذي تَخصَّص فيه، فكم أتَتْ فكرةٌ هندسيَّةٌ عظيمةٌ من قراءة كتاب في الأدب، أو في الاجتماع! وكم أتت فكرةٌ طبيَّةٌ ساميةٌ من ثقافة اجتماعية أو فلسفية!

ويُخيلُ إليَّ أن كثيراً من الأطباء ينقصهم المنطق مثلاً، فلو تعلموا شيئاً من المنْطقِ، لاستطاعوا أن يحددوا بالضبط نوع المرض ونوع العلاج، وخاصة في الأمراض التي تتشابه أعراضها، وتتقارب أوصافها، فالمنطق وحدَه هو الذي يستطيع أن يقول: ـ بناء على هذه الأعراض المتشابهة ـ إنَّ هذا المرض كذا دون كذا، والطبيب الناجح هو الذي مُنِحَ مَلَكَةً منطقيةً بالفطرة، ولو نُمِّيَتْ هذه المَلَكَةُ الفطرية بشيء من الفلسفة، والمنطق التعليمي، لكان صاحبها أنبغَ وأعظمَ.

◆ أيْ بُنَيِّ!

مفتاحُ هذه المشكلة أن تجتهد أوّلَ أمْرِكَ، أن يكونَ لك هِوايةٌ في فرع من فروع الثقافة الْعَامَّةِ، كنوعٍ من دراسةِ التاريخ، أو نوع من الأدب، أو نوع من

---

(١) أحمد أمين: أديب مصري، ولد في القاهرة سنة ١٨٧٨م وتوفي في ١٩٥٤م كان عميداً لكلية الآداب في جامعة القاهرة، وعضواً في المجمع اللغوي المصري. من مؤلفاته (إلى ولدي) ومنه اقتبسنا هذه الوصية، وكتاب (الأخلاق) و(حياتي) و(فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، وفيض الخاطر).

الدراسة النفسية أو الاجتماعية بجانب دراستك الخاصة، تبدأ فيه على مَهَلٍ، وتُحبِّبُ نَفْسَك فيه رُويداً رُويداً، كما يفعل من يريد أن يمرِّنَ نفسه على هواية جمع الزهور، أو جَمْع أوراق البريدِ أو الرَّسم أو أيِّ فنٍّ منَ الفنونِ الجميلة.... فإذا صَبَرْتَ على هذا قليلاً قليلاً، وجدتَ أن لذَّتَكَ تنمو شيئاً فشيئاً، ومازال كذلك، حتى تُصبحَ هذه الهوايةُ (كَيْفَاً) لا تصبرُ عنه، ولا تستطيعُ العيشَ بدونه، ولكنَّه (كيفٌ) راقٍ سام، نبيلٌ نافعٌ، فإذا وَصَلْتَ إلى هذه الدَّرَجةِ، اسْتَسْخَفْتَ مَنْ يُضيِّعون أوقاتَ فراغِهِم في الحديث التَّافه، واللَّعب السّخيفِ، والقراءة الرَّخيصةِ، وأحببتَ أن تُصادقَ مَنْ قَوِيَتْ ثقافتُه ونَضِجَ تفكيرُه.

أليس عجيباً أن تسمعَ من زملائك، أنَّهم يريدون قتلَ الوقتِ بلَعبِ الورق، أو بالحديث التافه أو بالكلام في أعراض الناس أو نحو ذلك؟ كأنَّ الوقت عدوٌّ يُقاتَلُ مع أنَّه المادةُ الخامَةُ للحياة، وهو أجدر بأن يُصادقَ لا أن يُقاتلَ، ولكنْ كم يجني الإنسان على نفسه بمعاداة أحق شيء بالصّداقة!

أي بُنيّ! تصوَّر أنك ستعيشُ بعد ذلك أربعينَ عاماً أو خمسينَ، وتصوَّرْ ماذا تجني في هذه السنين الطوال، إذا أنت صَرَفْتَ جزءاً كبيراً منها في تقويم نفسك وتثقيف عقلك، وتهذيب ذوقك، وتصوَّرْ كيف تخسرُ إذا أنت صرفت أكثرها فيما يضر ولا ينفع، بل أنت إذا حَسَبْتَ ذلك بحساب اللَّذَّة الشخصية فحسب، وجدتُك تتلذذ أضعافاً مضاعفةً من لذائذكَ العقليةِ أكثرَ من لذائذكَ الجسديَّةِ.



حب المعلمين طريق النجاح

كتب الأستاذ أحمد حافظ عوض[١] إلى ولده في الرسالة الرابعة[٢] يقول:

◆ **ولدي العزيز:**

لا أريد في هذه الرسالة أن أنصحك بالمواظبة على دراستك والالتفات إلى معلميك في أثناء إلقائهم الدروس عليك وعلى رفقائك في المكتب، ولا أقصد أيضاً أن أحثك على مسابقة أقرانك لتكون دائماً موضع ثقة وعناية أساتذتك، فإن مثل هذا النصح مألوف معروف، بل يكاد يكون العمل به أمراً طبيعياً وصفة غريزية في النفس، وما رأيت تلميذاً قد استفاد من نصح بهذه الطريقة، أو من هذا النوع من الحث والإرشاد ولكن الذي أريد أن أوجه نظرك إليه بنوع خاص هو أمران:

أولهما: أنْ توجدَ بينك وبين أساتذتك جميعاً ـ لا فرق بين معلم الخط ومعلم اللغة عاطفةَ ميلٍ وانعطاف وشعور بأنك من الواحد منهم في منزلة الابن من أبيه، وقد دلتني خبرتي في التعلُّم والتَّعليِم، أنه حين توجد تلك العاطفة، وذلك الشعور بين التلميذ وأستاذه، تخف متاعب الاثنين في الفهم والتفهيم وتوجد عند التلميذ من جراء ذلك الميل رغبةٌ شديدةٌ في تلقف ما يلقيه عليه المعلم، وشغف

---

(١) أحمد حافظ عوض ولد عام ١٨٧٧م وتوفي عام ١٩٥٠ عمل مترجماً وصحفياً وسياسياً صاحب جريدة ((كوكب الشرق)) وعين مدة في مجلس الشيوخ المصري وكان عضواً في مجمع فؤاد الأول للغة العربية مؤلفاته:ـ ١ـ نابليون في مصر ـ ٢ ـ اليتيم ـ ٣ـ حياة شاب ـ ٤ـ من والد إلى ولده.

(٢) كتاب من والد إلى ولده: مجموعة رسائل ذاتية خاصة تبلغ تسع عشرة رسالة، أرسلها أحمد حافظ عوض إلى ولده عندما كان يدرس في الكلية الأمريكية في بيروت، جمعها ابنه فيما بعد، وصدرت في كتاب عام ١٩٢٣م ـ وهو من مطبوعات ـ مكتبة ومطبعة الشعب ـ القاهرة.

كبير بالإصاخة[1] له والاستفادة منه، وكذلك يشعر الأستاذ نفسه دائماً بأن هذا التلميذ جزء من متممات وظيفته، فلا يستريح له خاطر إلا إذا تأكد أن هذا التلميذ الذي يشعر نحوه هذا الشعور ويحس تجاهه هذا الإحساس، قد فهم ووعى ما ألقاه من الدرس والإيضاح.

ونحن يا بني مهما كنا وكيفما كانت وظيفتنا، وكان مركزنا وعلمنا، أناس على الفطرة الطبيعية لا تشذ عنها مطلقاً، فا لمعلم مثلك ومثل كل إنسان ذو عاطفة إنسانية يحس في عمله، كما يحس كل فرد في معاملته لشخص مثله، فهو مهما (قبض على قلبه بيده) وكان مع تلاميذه غير متحيز ولا مميز الواحد على الآخر، لا يستطيع أن يمسك قلبه دون الانعطاف بنوع خاص، والحنان بصفة مخالفة للمعتاد، نحو عدد من التلاميذ الذين يظهرون المحبة والميل إليه بالإصاخة له وبالترديد لعاطفة الرغبة في تسهيل عمله، ومتى نَمَتَ فيه تلك العاطفة، ووجد ما يماثلها عند التلميذ، وُجِدَ بين الاثنين سيال الكهرباء النفسية حتى لقد ينساب العلم من عقل المعلم إلى عقل تلميذه، انسياب الماء في الأنابيب من المرتفعات حتى يتساوى المستوى بينهما.

ولا غرابة في ذلك لأن الحب على أنواع شتى ودرجات مختلفة، فهو بين الوالد وولده والأم وابنها والعاشق ومعشوقه والصديق وصديقه، والمعلم وتلميذه، وأصحاب الصفات المتشاكلة المتماثلة بعضهم مع بعض... فإذا كان من حظك أو كان من عملك، أن تتمكن من بعث نور هذا الحب في قلب معلمك، واستطاع هو بذكائه ولطف مزاجه، ورقة حاشيته، أن يبعث في صدرك وصدر رفقائك التلاميذ أثراً من نور تلك العاطفة، فقد خف تعب التعلُّم على التلميذ، وسهل التعليم على الأستاذ.

وقد اشتغلت بالتعليم زمناً قصياً فكنت قبل أن أبدأ في إلقاء الدرس، أعامل التلاميذ بلطف ووداعة، وأبعث فيهم الثقة بي والرغبة في حضور درسي، وأتفرس

---

(١) إصاخة: استماع.

في وجوههم عاطفة الميل نحوي وأطارحهم الحديث الشخصي، وأبش في وجوههم حتى أشعر أنني قد ملكت أزِمَّة أفئدتهم، وأشعر كذلك بعاطفة الميل مني إليهم ـ وعندئذ أشتغل بإلقاء الدروس فلا أمل منها ولا أضيق صدراً بصناعة التعليم ـ وهي على ما هي معروفة به من المشقة، وكنت أستطيع أن أتمم المقرر عليهم في نصف المدة المقررة.

وإتماماً لفكرة وجود عاطفة الحب بيني وبين التلاميذ، كنت إذا بدر من بعضهم سوء أدب أو إهمال أو معاكسة أو ما أشبه ذلك، مما يقصده التلاميذ لمضايقة معلميهم، أو لكسل منهم، أو لرغبة بريئة في اللعب والمهاترة، أقول: كنت إذا رأيت شيئاً من هذا، أشتد في معاملة بعض المسببين له وأقول للبعض الآخر: (إنني لا أصدق أن مثلك في ذكائه وأدبه وميله إليّ يرتكب شيئاً من هذه الصغائر) ثم أتظاهر بالغضب منهم أجمعين وأخاطبهم كأني واحد منهم كبر علي أن أجد منهم ما وجدت أو أسمع ما سمعت، وهم كأصدقائي مع أني كنت إذ ذاك كوالد لأكبرهم في السن فكنت وقد أيقظت منهم عاطفة الحب والإخاء والصفاء، أجدهم قد تأثروا وربما ذرف بعضهم الدمع وتألبوا على ذم المسبب لذلك، ثم يأخذون في استرضائي حتى أظهر لهم أنني قد صفحت وأنني أحبهم أجمعين، وأنني لذلك الحب والحنان قد عفوت عن الخاطئين منهم.

وأؤكد لك يا بني أنني كنت بهذا أكسب محبتهم، وكنت لا أكلفهم بعمل إلا أدوه على غاية من الكمال، وحتى لقد كانوا يترقبون الساعة التي كنت أحضر فيها عندهم بفارغ الصبر، وأذكر أنني استطعت أن أصلح من أخلاق كثيرين منهم، وأوقظ الاستعداد الفطري للعلم في عقولهم بعد أن كان قد يئس منهم آباؤهم ومعلموهم، وما نتج كل هذا إلا بإيجاد عاطفة الميل والْحُنُوِّ من جانب التلميذ نحو معلمه ومن جانب المعلم نحو تلميذه.

أما الأمر الثاني الذي أريد أن أوجه نظرك إليه فهو أيضاً مرتبط بعاطفة الحب، ولكنه في هذا النظر الثاني موجه إلى العلم نفسه لا إلى الأساتذة.

لا يمكن لطالب علم أن يستفيد منه فائدة ثابتة، ولا يمكنه أن يتشبع من

أصول العلم وتتأصل فيه بذوره، فتنمو وتتفرع إلا إذا مال إلى ذلك العلم ميلاً صحيحاً، فإذا كان الكثير مما نتعلمه في المدارس لا يبقى في أدمغتنا إلا ريثما نؤدي الامتحان فيه...

وإذا كنا نجد في تعلم العلوم وحفظها ومعالجتها شيئاً من التعب والملل فما ذلك في الحالتين إلا لأننا لم نَمِلْ بقلوبنا إلى تلك العلوم.

ولا أنكر عليك أن الناس يختلفون في الميل إلى تلقي العلوم باختلاف أذواقهم ومشاربهم، وأن هذا الاختلاف هو الذي يوجد الميل إلى علم دون آخر، ويوجد ملكة الذوق في واحد وبالعكس من ذلك في آخر.

ولا أنكر عليك أيضاً أن التعلق بالعلم فطرة طبيعية غير اكتسابية، أريد بذلك أنَّ الذهابَ إلى المدرسة بعاطفة من الحب لتلقي الدروس والاشتغال بها، خُلُقٌ لا يُعَلَّمُ ولا يُكْتَسَبُ بالنصح والحث والإرشاد.

ولكني في هذا وذاك أريد أن أدلك على الطريقة، وإن شئت فقل الوسائل التي تحببك في العلوم على اختلاف أنواعها بوجه عام. وفي بعضها أو في واحد منها بنوع خاص، لأنك بغير ذلك الحب لا يتيسر لك النجاح في جميعها، بصفتك طالباً عليك واجب تؤديه نحوها للفوز فيها عند الامتحان على الأقران.

فأنا مع اعتقادي بعظم تأثير الفطرة الطبيعية علينا جميعاً من حيث الميل إلى شيء، أو النفور منه لا أعترف مطلقاً بأنه ليس في مقدرة كل إنسان أنْ يُرَقِّيَ في نفسه بالمعالجة وعدم الاندفاع مع الخيال، ملكة الرغبة في جميع العلوم خصوصاً إذا صحب هذه المعالجة قليل من التأمل والحكمة: كأن يقول الطالب في نفسه: أنا مجبور بمقتضى النظام الذي قضت به البلاد التي أنا فيها، وبمقتضى الخطط التي وضعت للتربية والتعليم والامتحانات والشهادات، وبما يرتبط بها من تقدير الناس بعضهم لبعض، أن أدرس ذلك العلم وأن أجيده لأحصل فيه على درجات كافية، وأنا لا أستطيع أن أصل إلى ذلك، وأنا كاره لذلك العلم نافر منه، فلا بد أن أتفاهم معه وأصادقه ما دمنا على سفر معاً، حتى يتاح لي أن أسير في طريق غير طريقه، وأتركه لغيري ممن يحب مصاحبته.

تقول: وكيف يمكن التفاهم والميل؟ أجيبك إن ذلك أمر سهل، أولاً لا توسع دائرة الكراهية في نفسك لفن من الفنون، واجمع حواسك على أنه ضروري لك، واخلق لخيالك محاسن فيه، وكل علم فيه من المحاسن ما لا يحتاج لإرغام الخيال وتكلفه، وعليك أن تضيف إلى الواسطة في الحب، صفات المعلم ومحبتك لشخصه ولطفه وأدبه كما أبنت لك في الجزء الأول من هذا الخطاب.

ومن الوسائل التي تحبب لك علماً تميل إليه، محادثة المحبين له ورغبتك في مجاراتهم وشعورك بأنه يجب عليك أن لا تكون أقل منهم منزلة وكفاءة في ذلك العلم.

ومن الوسائل أيضاً أن تطلع، ولو اطلاعاً سطحياً، حتى من نوع التفرج على مطولات ذلك العلم، فإن المطولات تكون أفسح للخيال مجالاً، وقد تؤدي بك إلى الشعور بالميل إلى ذلك العلم.

والخلاصة يا بني: أنك لا تستطيع أن تنجح في تلقي العلوم، ولا تستطيع أيضاً أن تمضي زمن تعليمك باللذة والسرور، والسهولة إلا إذا كنت محباً للعلوم مقبلاً عليها غير مسوق للتعلم بالعصا والضغط أو الخوف.

والله المسؤول أن يجعلك ممن يحبون العلم لذاته، فإن محبة العلم تخفف ثلاثة أرباع المشقة في تلقيه وممارسته.



اقطع وقتك بالكتاب...

كتب البدوي الملثم (يعقوب العودات)[1] في بعض رسائله يوصي ابنه[2] قائلاً:

١ـ النصائح التي أسديكها[3] هي حصيلة التجارب التي مررت بها خلال سِنِيْ عمري، وإذا ما وجهتُ إليك بعض ما يخطر منها في البال، فهدفي تزويدك بالحكمة وإضاءة طريقك، لتتفادى الجادة الشائكة ولتسلك السبيل القويم، ولتفرق الخيط الأبيض من الخيط الأسود!

صَدِّقْني يا (خالد) أن نصيحة يقدمها لك شيخ عركته[4] التجارب عرك الرحى.... هي في نظري خير من ألف شهادة وألف ألف (دكتوراه)!.

فدعني أتحدث إليك بما يخطر في البال... وكأنني أتحدث إلى جيلك العربي الصاعد! والناس يا بني أحاديث ... فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثاً فافعل... ولست بنادم![5] .

٢ـ أريد منك يا خالد أن تكثر من المطالعة، وأن تحذر هدر الوقت في الأمور التي لا تغني.

عليك يا خالد أن تقرأ وأنت في السيارة وفي الطيارة وفي القطار حتى تظل متصلاً بالعالم وتكون ملماً بتطور العلوم.

لا تقرأ الكتاب للتسلية وإزجاء الوقت[6]، بل اقرأه كغذاء لروحك وعقلك وتفكيرك.

---

(١) يعقوب العودات، أبو خالد، المعروف بالبدوي الملثم (١٣٢٧ ـ ١٣٩١هـ = ١٩٠٩ ـ ١٩٧١م) أديب أردني، بحاثة في تراجم معاصريه وتاريخهم.

(٢) في خريف عام ١٩٦٨م التحق خالد بن يعقوب العودات بالجامعة الأمريكية في بيروت، فوجه إليه رسائل هي في الحقيقة خطاب لكل طالب عربي.

(٣) أسديكها: أقدمها إليك.

(٤) عركه الدهر: حنكه، وعركته التجارب اكتسبته خبرة.

(٥) انظر كتاب (رسائل إلى ولدي خالد) البدوي الملثم سلسلة اقرأ ـ دار المعارف بمصر العدد ٣٢٩ مايو سنة ١٩٧٠ صفحة٢٢.

(٦) إزجاء الوقت: قضاء الوقت.

روت لي جدتك السيدة ماري صروف شحادة أن عم والدتك الدكتور سليم شحادة كان يقرأ كل ليلة كتاباً.. وكان الأول في صفوفه ولم يدفع فَلْساً[(١)] واحداً لقاء دراسته الثانوية والجامعية، بل تلقاها مجاناً في الجامعة الأمريكية ببيروت وفي جامعة كورنيل بالولايات المتحدة لأنه رجل ذكي مسلح بثقافة واسعة الجوانب والأبعاد، فواصلِ القراءة، واقطع وقتك بالكتابة، وحاذر أن تمر ساعة من وقتك ولم تستفد من المطالعة، ورحم الله القائل:

إذا مــر بي يــوم ولم أســتفد يَــدًا [(٢)] ولم أكتسب علماً فما ذاك من عمري![(٣)]

٣ ـ الحبيب (خالد).

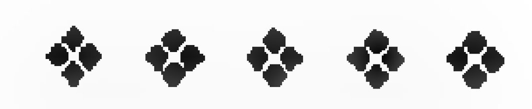
جاء في الحكمة العربية أن العقرب سئلت مرة: لماذا تلدغين وأنت لا تأكلين باللدغ ولا تشربين ولا تنتقمين، إذ تلدغين البريء المسكين؟ فأجابت (لأن الأذى طبعي).

ورأت حمامة رجلاً مشرفاً على الغرق فألقت إليه بريشة لعله يستعين بها على العوم فقيل لها: (وما فائدة هذه؟)

فأجابت: (هي كل ما أستطيع أن أفعله، لأن النفع طبعي).

تتناهى إلي أنباء المساعدات التي تقدمها يا خالد سراً لمن قصدك واستجار بك وشعورك مع المتخلفين في دروسهم ونصحك ذوي المشكلات المعقدة، فأغتبط بأنبائك هذه وأزداد اعتزازاً بك.

ورجائي يا ولدي أن تلقي دوماً لكل من استجار بك (ريشة) لعله يستعين بها على العوم... في خضم هذه الحياة[(٤)].



(١) فَلْس ج فُلُوس: عملة تساوي جزءاً من ألف من الدينار ـ (في الأردن والعراق والكويت).

(٢) يد: معروف وإحسان.

(٣) رسائل إلى ولدي خالد صفحة ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٤) المرجع نفسه صفح ١٠٤.

كن محباً لله بلا شرط...

كتب الشيخ ملاً رمضان البوطي[١] إلى ابنه الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي[٢] وصية[٣] يقول فيها:

أيها الولد: أوصيك بالتفكر في نفسك بأنك مُحْدَث، خلقت من ماء مهين بواسطة الوالدين، كما خُلِقَا أيضاً كذلك، وهلمَّ جراً إلى أبينا آدم. وهو قد خلقه الله عز وجل بقدرته من تُراب، كما أنزل في كتابه المبين، لقوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[٤] وقوله ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ...﴾[٥] فإذا علمتَ بأنَّك مُحْدَث علمت حدوث غيرك أيضاً من السماوات والأرض وما فيهما،

---

(١) ولد الشيخ ملاً رمضان البوطي عام ١٨٨٨م في قرية (جيلكا) التابعة لجزيرة بوطان (جزيرة ابن عمر) داخل الأراضي التركية القريبة من الحدود السورية. تعلم الكتابة وقراءة القرآن، ثم التحق بالمدارس الشرعية، ثم تزوج، ورزق بعدة أولاد ماتوا ولم يبق له من الذكور إلا محمد سعيد، ثم رحل الشيخ ملاً إلى الشام وسكن في دمشق مع أسرته حتى وفاته عام ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م رحمه الله تعالى.

(٢) الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: ولد عام ١٩٢٩ م في قرية (جيلكا) قرب جزيرة ابن عمر الواقعة في شمال شرقي سورية. والداخلة في حدود تركيا حالياً، هاجر مع والده ملاً رمضان إلى دمشق وعمره أربع سنوات أنهى دراسته الثانوية والتحق بالأزهر عام ١٩٥٣ حصل على الدكتوراة في أصول الشريعة عام ١٩٦٥م، ثم عين مدرساً في كلية الشريعة بدمشق ثم وكيلاً ثم عميداً لها، ثم رئيساً لقسم العقائد والأديان، وقد اشترك في كثير من الندوات والمؤتمرات وله أكثر من أربعين مؤلفاً في علوم الشريعة ترجم بعضها للانكليزية والألمانية والفرنسية.

(٣) هذه الوصية وردت في كتاب (هذا والدي) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ دار الفكر دمشق ط (٣) ١٩٩٥م صفحة ١٨٤.

(٤) الآية (٥٩) من سورة آل عمران.

(٥) الآية (٧١) من سورة ص.

لأنه لا فرق بينك وبينه في ذلك. غير العزيز الحكيم القدير، فإنه خالق غير مخلوق، مُحْدِثٌ، ليس له أول ولا آخر، ولا شيء من صفات المحدَثات فإنه لو كان فيه شيء من ذلك لما صَلُحَ للألوهية، كما لا يخفى على ذوي الألباب.

فإذا علمت حُدوثك وحدوثَ سائر العالَم، عرفت أن للعالم مُحْدِثاً أوجده من الْعَدَم من غير مادة. وهو الله الرزَّاق المحيي المميت الفعَّال لما يريد. لا شريك له في ذاته. أي ليس متعدداً، لا في ذاته ولا في صفاته بأن يماثله فيها أو في بعضها غيره.

فحينئذ تعلم أنَّ إلَهكَ هو الله الواحد الأزَلي الأبَدي [1] الذي ليس له نظير ولا أوّل ولا آخر المنزه عن الكَمِّ والكيْف وأيْنَ ومتى، الذي خلَق جميع الأشياء ودبَّرها، كما خلقَكَ، وأنّه لابُدَّ أن يكون لذلك الإيجاد من حكمة، فإن الله عز وجل منزه عن أن يَعْبَثَ بفعله، كما قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[3].

وتلك الحكمة لا بدَّ أن تكون الابتلاء والامتحان لأمثالِكَ من المكلفين، لقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[4] فمَنْ آمن به وعملَ صالحاً يدخله بفضله جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ كما وعدَ في كتابه المبين. والكريمُ إذا وعدَ وَفى، بل قد يزيدُ، ومن كفرَ به يدخلْهُ ناراً خالداً فيها.

فإذا تفكرتَ حقَّ التفكر في نفسِكَ وغيرِكَ من الآيات، علمتَ أن كلَّ ما سوى الله آيات دالأَّت على وجودِ واجبِ الوجودِ، وأنَّ الدنيا ليست مستقلةً بالذاتِ بل إنَّما هي واسطةٌ. والمقصودُ بالذَّاتِ إنَّما هو الآخرة.

وعلمتَ بأن الآخرةَ هي السعادةُ الأبديَّةُ للمؤمنينَ والشقاوةُ الأبديَّة

---

(١) أزلي: دائم الوجود لا بدء له. أبدي ما لا آخر له.

(٢) الآية (١١٥) من سورة المؤمنون.

(٣) الآية (١٦) من سورة الأنبياء.

(٤) الآية (٢) من سورة الملك.

للكافرين، وهي نتيجة الدنيا بحسب الظاهر. وعندئذ تُشَمِّرُ عن ساعدِ الجدِّ لإرضاء ربك وامتثال أمره، ولا تعمل للدنيا إلا من حيث هي واسِطَة على طريق الشَّرع.

فيا أيُّها الولدُ: إذا وَعيتَ ما ذكرنا، فألقِ السَّمع للكلام الآتي وأنتَ شهيد، وتأملْ فيه حق التأمل أيُّها السعيد، واعملْ به فإنه هو السبب للحياة الأبدية والأمر السَّديد. وهو هذا الذي أقوله:

اعلمْ أنَّ الله خلَق الجنة والنار، وخلق أشياء كثيرة أخرى لا يعلمها غيره من الملائكة والإنس والجانّ وسائر الحيوانات والجمادات، ولم يكلف نوعاً من هذه الأنواع غير الإنس والجن، كما قال عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فخلق الإنسان وركَّبَ فيه الشهوات النفسيةَ من الميْلِ إلى الطَّعامِ والملابسِ، والتكلم بكلام الدنيا والنظر إلى المحرمات، وشهوة الفرج، وحب الجاه والمال، والكبر والحقد والحسد، والنميمة والغيبة، وفراغ النفس من الطاعات والمشاق. ومع ذلك سلط علينا الشيطان الإِنْسي والجنِّي... ثم كلفهم بترك الشهوات النفسانية إلا أن تكون عن طريق الشرع، وبعدم اتباع الهوى وعدم امتثال نصائح الشيطان الإنسي والجني، حيث قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[2] ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[3] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[4].

فصار الإنسان إذن مكلفاً بتزكيةِ النفس والامتثال للأوامر واجتناب النواهي. فلابد لك أن تشمر عن الساعد وتجاهد حق المجاهدة كلاً من الشيطان والنفس بتوفيق الرحمن.

ولا يخفى أن هذه المجاهدة يلزم لها العلم. فإن البطل الذي يبرز للعدو، إذا لم يكن ماهراً في أصول المحاربة ومكائدها من الكرِّ والفرِّ، يُغْلَب في أول مرة.

---

(١) الآية (٥٦) من سورة الذاريات.

(٢) الآية (٦) من سورة فاطر.

(٣) الآية (١٣٥) من سورة النساء.

(٤) الآية (١٠) من سورة الشمس.

فالآن إذا أردنا أن نرجع إلى ديننا ونطيع مولانا ونكون من أشرف الأمم، فاللازم علينا التَّفقه في الدين والنظر إلى الدنيا بتحقيقها ودناءتها، وأن نتأمل في هذا الحديث الصحيح الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله منكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» زاد الترمذي: «وعُدَّ نفسك من أهل القبور».

فإذا عرفت حكمة خلقك، وحقيقتك، وأنك عبد مأمور بتقوى سيدك وبالعمل لآخرتك، وبأن الدنيا آلة لعمل الآخرة، وأنك مكلف بالأحكام الشرعية في جميع أحوالك وأفعالك الاختيارية، حتى إن كل خطوة من خطواتك وقولٍ من أقوالك، لا بد له من قصد مصلحة، وإلا فهو من الإثم إن قصدت به الإثم أو مما لا يعني إن لم تقصد شيئاً، فأقبل عندئذ إلى الله بقلبك وإخلاص نيتك، واجعلْ مقصودك رضاه وحبَّ من يحبه، واترك النفس والشيطان، فإنهما يريدان إخراجك من النُّور إلى الظلمات، ويريدُ الله إخراجك من الظلمات إلى النور، فقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ﴾[1].

فإذا أقبلت على الله صِدْقاً، ينبغي أولا أن تتعلم العلم، فإنه روي «ما اتخذ الله من ولي جاهل، ولو اتخذه لعلّمه» والمراد بالجاهل الجاهل بالعلوم الوهبية، أما الجاهل بمبادئ العلوم الظاهرة مما يجب عليه تعلمه، فهو واجب على عامة الناس، وليس من ضرورات تعلمه أن يصبح المتعلم ولياً، قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» وأما العلوم التي أوصيك بالبعد عنها، فثلاثة: حرام، ومكروه، ومباح، أما الأولى فالفلسفة[2] والشعبذة[3] والسحر والتنجيم

---

(١) الآية (٢٥٧) من سورة البقرة.

(٢) يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: اعتمد والذي فيما بعد، ما ذهب إليه الجمهور من أن دراسة الفلسفة جائزة لذوي الملكة العلمية الواسعة، والذين استقرت في عقولهم حقائق العقيدة الإسلامية.

(٣) الشعبذة: علم الاحتيال.

والرَّمل وعلوم الطبائعيين، وأما الثاني، فكأشعار المولدين المشتملة على الغزل والبطالة، وأما الثالث فكالعلوم التي لا سخف فيها ولا شيء مما يكره، أو ينشط لشر أو لخير.

وإذا أردت أن تتعلم، فكن في أيام تعلمك متيقظاً زاجراً[1] لنفسك عن المعاصي، ولا تكن مثل بعض طلبة الزمان، حيث لا يلتفت إلى ما لا بد له منه، ولا يسأله في هذه الحالة، من لا يعلم، وينبذ العلم وراء ظهره من يعلم، ويتبعون الشهوات أيام التعطيل مثل يوم الجمعة وليلتها، ولا يعلمون أنهم يحرمون من ثواب الوقت وفضله، والعوام يقتدون بهم ويتبعونهم في ذلك لحسن ظنهم بهم حيث يرون أنهم أهل علم، فيَضلُّون ويُضلُّون مع أن ليلة الجمعة ويومها موسمان للطاعة والدعاء والصلوات، فبسبب لهوهم يحرمون من فضيلتهما العظيمة التي لا تدرك.

وحاصل الكلام أيها الولد، أنني أوصيك باتباع الكتاب وسنة النبي ﷺ في جميع حركاتك وسكناتك، وترك ابتداع عوام الزمان، فإن البدعة شَرَكُ الشِّرْك، فحذارِ أن تتعلَّم أو تُعلِّم أو تعمل شيئاً إلا بنية خالصة، وكن غريباً بين أظهر أصحابك، فإن تلك الغربة محمودة لحديث: «الدِّينُ بدأ غريباً وسيعودُ غريباً كما بدأ فَطُوبى للغرباء» ولا تغفلْ عَن الله في وقتٍ من الأوقات.

وزكِّ نفسك من الرذائل والأمراض القلبية، كالغضب والحقد والحسد والعجب والرياء والفخر والحرص على الدنيا والطمع والبخل وحب الجاه، لأن من الفروض العينية معرفَتَها ومعرفةَ أسبابها وعلاجها.

ويا أيُّها الولد: عليكَ بالرياضات[2] والدعاء من الله بالتوفيق، ولا تلتفت إلى ثقل الأمر على نفسك، فإن غالب الفواكه قبل الإدراك طعمها حامض أو مر ثم يدرك[3].

---

(١) زاجر: مانع.

(٢) الرياضات مفردها الرياضة وهي: تهذيب النفس والأخلاق.

(٣) إدراك الفواكه: نضجها.

وإن الدنيا وإن كانت لذيذة عند أهلها وفي الوهلة الأولى، لكنها طعام فيه سم عند ذوي البصائر وبعد تدقيق النظر.

وإن طاعة الرحمن وإن كانت ثقيلة في البداية وعلى النفس الأمارة، لكنها خفيفة لذيذة، بل ليس شيء أحلى منها في النهاية وعلى النفس المطمئنة، وإن ترك الدنيا يكون سبباً لاستراحة البدن في الدارين، وأما حبها وازديادها فيكون سبباً لوقوع صاحبها في الأحزان دائماً.

وإيَّاكَ وحبَّ الجاهِ، وهو سعي الإنسان إلى أن يكون معظَّماً في القلوب وعلاجه بأن تعلم أن إرضاء قلوب الناس عن نفسك لا ينفعك لأنه غير باق، أما تنظر إلى فرعون كيف عظموه حتى عبدوه، ثم إلى ماذا صار وصاروا؟.... فلو عَظُمْتَ أيها الولد في قلوب الناس ما تصل إلى عشر معشاره، ولكن إن جاهدت نفسك في تقوى الله تعالى وإرضائه عنك، تحصل لك الحياة الأبدية إن شاء الله تعالى، ويكون رضاه عنك سبباً لرضاهم عنك، فإن القلوب كلها بيده يقلبها كيف يشاء.

إن الجاه يكون سبباً للكمال الوهمي لا الحقيقي، فإنّ شرفَكَ عند الناس أمرٌ وهميٌّ لا حقيقة له، كالزَّبد الذي على وجه البحر ينقلب بسرعة، كما أن العلمَ بالمعلومات المتغيِّرة كمالٌ وهميٌّ ينقلب جهلاً، كأنْ تعلم مثلاً أن زيداً في الدار، ثم يخرج فينقلب علمك جهلاً، وأما علمك بالمعلومات الثابتة كالعلم بوجود الله، وبأنه متصف بكل صفات الكمال، ومنزه عن كل صفات النقصان، فهو كمال حقيقي لا يزول لا في الحياة ولا في الممات.

ثم أيُّها الولد: إذا علمت حقائق الأمراض القلبية وأسبابها وعلاجها، وأنَّ العلمَ بذلك فرضُ عينٍ على كل مؤمنٍ، علمتَ حينئذ أنَّه يلزمك الاجتهاد في تصفية قلبك عنها وعن وسوسة الشيطان.

ثم عليك بالصَّمْتِ أيُّها الولد: سيَّمَا عن المحرمات والمكروهات، فإن رسول الله ﷺ قال: «من كانَ يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقلْ خيراً أو ليصمت»[1].

(١) متفق عليه.

ويا أيُّها الولد: إن أردت سلوك طريق السَّلف، ولا تكون لإبليس هدفاً، فعليك بتزكية القلب من الآثام، وتقليل الكلام ما استطعت لا سيما الغيبة والنميمة، حيث يصعب الاحتراز عنهما في هذا الزمان، بل صارتا فَاكهةَ المجالسِ والضِّيِّفَان، كلما اجتمعوا اشتغلوا بعيب غائب أو بنقل كلامه إلى الغير على وجه الإفساد. وقد قال الله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1] وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[2] وقال تعالى في ذمِّ الغيبة ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[3] والوعيد في ذلك كثير جداً.

ثم أحثُّكَ على أن لا تعلّقَ قلبَكَ بغير الله إلا أن يكون رسولاً له أو نبياً أو وليّاً. بل كنْ محباً لله لا غير إلا حبَّ من يقرِّبُك حبُّه إلى الله عز وجل، فإنه وحده الباقي في كل وقت، قديرٌ على كل ما يريد مما ينفعك أو يضرك، وكل ما سواه مقهور تحت قدرته كيف يشاء لا يقدر على جلب نفع لك ولا خير، فإذا آثرت سِواه عليه تعالى صارَ الإيثارُ حماقةً بل جنوناً.

ولا تقلْ إني محبٌّ لله وتاركٌ للدنيا، وأنتَ مخالفٌ لما جاء به نبينا محمد ﷺ، فإنَّ دليلَ حبِّ اللهِ تعالى الامتثالُ لأوامره واجتنابُ نواهيه، لا مجرد الميل النفساني ثم كنْ ما استطعتَ خائفاً من الله تعالى، فإنَّك لا تدري أي النهايتين يختمُ عمرك، وإنَّك لو أطعت الله تعالى دوام عمرك لا تعلم أنه يقبل منك طاعتك أو يردها عليك، ومع ذلك فقد قال الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[4] فلا تصير مستحقاً للجنة بطاعتك ولو بلغت نهاية طاعة الإنسان، وإنكَ لا تعلم أن غضبه تعالى بأي ذنب يحصل، أعاذنا الله منه، ولكن أكْثِرْ خوفك من سوء الخاتمةِ أعاذَنا اللهُ وجميعَ المؤمنين منهُ، حتى يكون ذلك سبباً ليقظتك وتهيُّئك في كلِّ وقتٍ للموت.

ثم عليك بإقامةِ الصَّلوات المفروضة بأركانها وشرائطها، ذا خشوع وتضرع

---

(١) الآية (٨٣) من سورة القصص.

(٢) الآية (١٠) من سورة الحجرات.

(٣) الآية (١٢) من سورة الحجرات.

(٤) الآية (٩١) من سورة الأنعام.

وحياء من الله، حاسباً نفسك بين يدي الله وأنت تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وخائفاً منه عَدَمَ قبولِه لها، بل يحتملُ أن يغضبَ عليك بسبب إساءَتك، واستشعرْ منّتَهُ عليك حيث أَذِنَ لك عبداً عاصياً بمناجاتِه، ثمَّ عليك بالسُّنَنِ الراتبة، فإنَّ مَنْ واظبَ على تَرْكها صارَ مردود الشَّهادة.

ثم أُوصيكَ بملازمةِ الجماعةِ، فإنَّه قد اختلفَ فيها على ثلاثةِ أقوالٍ: فرضُ كفايةٍ وسنة مؤكدة، وفرض عَيْن، فلا تتركها ما استطعت أي ما لم تكن معذوراً بأعذارها المذكورة في كتب الفقه.

ولا تكنْ إماماً ما استطعتَ، بأنْ وُجِدَ مَنْ يصلح للإمامة غيرك، لا إنْ لم يصلح، وأنت تصلح، فلا تتركها له حينئذ، ولكِنْ أتقنْ معرفةَ شروطها وآدابها فإن الإمامة ضمانٌ.

وخلاصةُ ما نوصيك به أن تكون عاملاً بالسنة في جميع حركاتك وسكناتك، ولا تعمل بالبدع التي ابتدعها أهل الزمان، فإن البدع شَرَكُ الشِّرْكِ كما قلنا، والشَرَكُ حِبَالة الصيد التي يصيد بها الصياد، فالبدع مثل تلك الحبالة في جلب الشِرْكِ، فلتكن أعمالك البدنية والمالية كلها بالسنة.

ثم أيها الولد: لا يفيد التطويل في الكلام، بل لا يفيد الأجلاف [1] ذكر ألف شاهد ومثال، ويكفي لمن ألقى السمع وهو شهيد مثال واحد، فيتأمل فيه ويخرج به من الضلال، فَلْنُخْرِجْ لك زُبْدَةَ الكلام، وعليكَ بالإصغاء والفكرِ التَّامِ إلى الختامِ، لتنالَ بهِ أعَلَىَ المقام وتعمل به على الدَّوامِ، وهيِ أنَّ الله خلقَ حياتين حياة أبدية، وهي حياة المؤمن في الجنة، والكافر في النار، وحياة فانية تزول قريباً وهي الحياة الدنيا، عبارة عن اللهو واللعب والتكاثر في الأموال والأولاد.

فانظرْ إلى الحياتين وتفكرْ فيها أيُّها أبقى وألَذّ، فإنَّ أوصاف الجنة لا تعدّ، والنعمة العظيمة رؤيةُ الباري تعالى وسيد الكونين محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام، وأما هذه الحياة، فهي كما ترى، لا تخلو

(١) الأجلاف: مفرده جِلْفٌ: الغليظ الطبع، الأحمق.

ـ ولو لمن كَمُلَتْ له كفرعون ونمرود وأمثالهما ـ عن نقص وحزن وألم، فكيف بغيرهم؟ ومع هذا سيدخلون جهنم داخرين[1] إلى الأبد معذبين، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها.

فخذ لنفسك الحياة الأبدية ولو كانت مؤجلة، فإن التاجر ربما يبيع متاعه نَسِيئة[2] لكون الفائدة فيها، أكثر مما في الحال، واترك الحياة العاجلة الفانية، ولا تقل: آخذ كلتا الحياتين، فإنهما لا تجتمعان لأن العاجلة تحصل باتباع الشهوات، والآجلة تحصل بتركها والمحافظة على الإيمان، وقد مرَّ أنَّ العملَ جزءٌ من الإيمان، وقد قال العلماء الكبار والأولياء الأخيار: مَنْ ابْتُليَ بتركِ الآداب وقع في ترك السُّنن، ومن وقع في ترك السُّنن وقعَ في تركِ الواجبات، ومَنْ وقعَ في ترك الواجبات وقع في ارتكاب المحرَّمَات، ومن وقع في ارتكاب المحرمات وقع في ترك الفرائض، ومن ابتليَ بترك الفرائض وقع في احتقار الشريعة، ومن ابتلي بذلك فقد وقع في الكفر نعوذ بالله تعالى.

فينبغي للإنسان أن يحفظ الآداب دائماً في جميع الأمور كلها بقدرِ وسْعِه، لا يكلف الله نفساً إلا وُسْعَهَا فانظرْ أيها الولد كيف يصير تركُ العمل القليل سبباً لزوال الإيمان الجليل أعاذنا الله وإياكم والمؤمنين من سَلْبِ الإيمان ثم لا يكفي في حبك مجرد الطاعة، كما قد تتوهم مما قلناه آنفاً، بل يلزمك أن تحبه حباً شديداً حتى لا ينفك القلب عن مراقبته وملاحظته وشهوده، حباً ذاتياً، لا بحيث إذا أعطاك تحبه وإذا منعك تترك الطاعة، فيصدق عليك قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ﴾[3] فإن كان حبك له ذاتياً وتعبده لذاته، فلن تتغير عن حالك وإنْ قَلَبَكَ إلى ألف حال، فليكن حبك من هذا القبيل بحيث لو تعلم أنه يعذبك بالنار أبداً مع طاعتك إياه، تطيعه وتحبه ولا تعصيه... ذلك لأنك لو عَلَّقْتَ حبك لله بحصول نفع من الله لك

---

(١) داخرين: أذلاء مهانين.

(٢) النسيئة: البيع إلى أجل معلوم من غير تقابض.

(٣) الآية (١١) من سورة الحج.

أو دفع ضرر عنك، يحتمل أن لا يوجد شرطك، فَيَسْلُو حبك ويذهب، بل كن محباً لله بلا شرط، كي لا يزول أبداً.

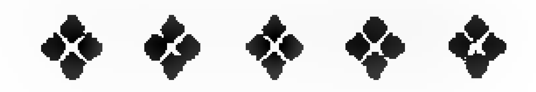
هذا هو رأس مال كل خير ودفع كل ضر، كما قيل: أخرجْ من قلبك الغَيْر، وليكن إلى الله السَّير، يدفع عنك كل ضر، وترى منه كل خير.

ثم كن حارساً على باب قلبك، كي لا يدخله شيء آخر، ثم كنْ ذاكراً بقلبك ولسانك لله ذكراً كثيراً، وكن محباً لرسول الله ﷺ ومصلياً عليه كثيراً، امتثالاً لأمره تعالى وإجلالاً للنبي وتوقيراً، وكن مجتهداً في طاعة ربك بالبدن والمال، وكن متضرعاً إليه في أوقات الابتهال مثل جوف الليل والسحر، وبعد الفرائض وعند الفطر من الصوم والعشر الأواخر من رمضان، والعشر الأوائل من شهر ذي الحجة لاسيما يوم عرفة، وأول ليلة من رجب وليلة النصف من شعبان وليلة المعراج وليلتَيْ العيدين ويومهما وأيام التشريق ولياليها واحرص على صوم أيام بعض منها، وإحياء لياليها بالطاعة والدعاء راجياً من الله حسن الخاتمة، والتوفيق للأعمال المقربة.

وعليك بركعَتَي الضُّحى أو أكثر إن وُفّقت.... وعليكَ بالتّهجد شاغلاً قلبك بالله لا بالدنيا وإلا فالنوم خير منه، وعليك بصوم أيام البِيض، لكن بالتدرج لئلا يثقل عليك الأمر، وقم إلى بعض التهجد، وداوم حتى تصير متطبّعاً به، وكذلك الوظائف الأخرى أقبل إليها شيئاً فشيئاً لا تزل كذلك وكما أوصيتك إلى أن تموت، فإن الله كريم لا يخيّبُ السَّائلين.

وكنْ مواظباً على قراءة الآيات والأذكار التي تصير سبباً لحسن الختام. وعلى الأذكار الواردة في الصباح والمساء.

والحمد لله على الإيمان والإتمام، وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام.



صياغة الأهداف علم وفن

كتب الدكتور فاخر عاقل[1] رسالة إلى ابنه يوصيه فيها قائلاً[2]:

بُنـيّ:

لعلك تذكر الرسالةَ التي كتبتُها إلى أختك حين كانت في عمرك، تلك الرسالة التي طلبتَ قراءتها وتمنيْتَ علي أن أكتبَ إليك مثلها، فوعدتُك أن أفعل حين تبلغ عمراً يقارب عمرها، وهاأنذا أكتب إليك هذه الرسالة اليوم مادُمتَ قد ودَّعْتَ أمس العام الثالث عشر من عمرك المديد السعيد ـ إن شاء الله ـ وتهيأت لاستقبال عامك الرابع عشر.

إنك الآن تودع طفولتك وتستعدُّ لاستقبال رجولتك، وسيدومُ استقبالك إياها أعواماً لن تقل عن ثلاثة، وقد تصل إلى الخمسة أو الستة.

إنك تبدأ فترة يسميها علماء النفس والتربية فترة المراهقة، وهي فترة يَعْتقدُ الكثيرون أنّها صعبة عسيرة خطيرة فيقلقون لها ويخشونها، ولا ينتبه إليها وإلى شأنها الأكثرية الساحقة من الأهل فيتركونها للصدفة فلا يهتمون بها ولا يعنون، وأعتقد أنا أنها فترة مهمة، وليس من الضروري أن تكون شاقة ولا عسيرة إذا تنبه الأهل والمربون إلى أهميتها، واتخذوا منها موقف الجد المتفائل والتوجيه الذكي الذي يتسم بالهدوء وسعة الصدر وحسن الفهم ولباقة الإشارة.

وضمن هذا الإطار أكتب إليك اليوم آملاً أن أدلك على الطريق السوي، وأن أشير عليك بالمنهج القويم، وأفتحَ عينيك على حقائق الحياة، ثم أتركك لذكائك

---

(١) الدكتور فاخر عاقل: هو باحث سوري معاصر، يحمل شهادة دكتوراه في التربية وعلم النفس، درَّس في جامعة دمشق وغيرها من الجامعات العربية، له مؤلفات عديدة في التربية وعلم النفس منها (أصول علم النفس وتطبيقاته).

(٢) نشرت هذه الرسالة في مجلة العربي الكويتية العدد ١٠٢ مايو أيار ١٩٦٧م.

وعقلك وقدرتك، إيماناً مني بأن مصير إنسانٍ إنما يكون من صياغته هو، فهو حق له وواجب عليه.

بُنيَّ: أول ما أحبُّ أنْ أفتحَ عينك عليه حقيقة هامة وأساسية: ألا وهي تغير الزمان وتطور العمر.

والحق أن الزمان كان دائمَ التغير أبديَّ التطور، فليس في هذا ـ إذن ـ جديد، لكنني أريدك أن تلاحظ أن تطور زماننا غير تطور الأزمنة السابقة، وإن تغير عصرنا متسارع بشكل يكاد يدير الرأس ويضيع التوازن، والويل كل الويل لمن لا يدرك هذه الحقيقة، ولا يتواءم معها.

إننا في هذه الأيام نستقبل مع شروق كل شمس تغيراً جديداً، لا في معارفنا عن الحياة حولنا، ولا في المخترعات والمكتشفات والتطبيقات العلمية التي نعيش في نعمائها، ولا في الحقائق التي نعرفها عن ذواتنا فحسب، ولكن بالإضافة إلى ذلك كله في المواقف الاجتماعية والمفاهيم الإنسانية والعلاقات البشرية، وهي أمور ـ لو علمت ـ بالغة الخطورة.

ولعلك قد سمعت من يقول: إنَّ ناموسَ الحياةِ تنازعُ البقاء، وإن البقاء في هذه الحياة الدنيا للأصلح (وأصلح قد لا يَعْني الأحسن أخلاقياً أو الأنسب مثالياً، وإنما الأقوى والأوفر قوة).

وحقيقةُ تنازع البقاء هذه، واقعٌ لا يمكن نكرانه، وحَتْمٌ لا مجال لتجاهله، لكنه يبقى ناقصاً ومشوهاً ومرذولاً إذا لم تكمله بحقيقة هامة هي الأخرى، أعني بها قدرة الإنسان على التكيُّف ومقدرته على التواؤم مع الحياة، وليس معنى هذا أن المخلوقات الأخرى ـ أو بعضها على الأقل ـ عاجزة عن عملية التكيُّف هذه، لكن معناه أن الإنسان هو أقدر المخلوقات على التكيف، وأذكاها في التعرف على حقيقة ما يحيط به، وأبرعها في محاولة التوفيق بين ذاته وبين بيئته.

وإني إذْ أُذَكِّرُكَ بهذه الحقائقِ أحبُّ لك أن تعلم أن سلاح الإنسان الأمثل في عملية التكيف هذه هو قدرته على أن يعلم وأن يكتشف وأن يخترع.

ومن هنا كانت الحقيقة البارزة الأساسية الهامة التي تقول: إن العلم والتعلُّم والتعليم هي الأقانيم الأساسية للحياة الإنسانية المتطلعة أبداً إلى ما هو أحسن.

ومن هنا أيضاً كان سِرُّ قوة الإنسان الحديث، وتقدمه السريع في قدرته على التعلُّم، وقدرته على التَّعليم، وقدرته على دفع العلم إلى أمام، يتعلَّم هو ويعلِّم أجياله اللاحقة، ويتقدم بالعلم إلى مزيد منه.

وسأعود بك إلى حديث العلم هذا عما قليل في موضع آخر مختلف بعض الشيء.

◆ **أيْ بُنيَّ:**

وفي بنائك حياتك ورسمك لمصيرك أحب لك أن تكون واعياً ذكياً، فلا تقبل أن تساق بالصدفة وأن تدفع بالحوادث الطارئة، وأن توجهك تصاريف الزمان

لقد منحك الخالق ـ عز وجل ـ عقلاً وأعطاك حرية، ثم قال لك خُضْ معركةَ الحياة فلماذا تتخلى عن هذين السلاحين الماضيين؟ لماذا تعطل عقلك وتتنازل عن حريتك، وتترك نفسك ريشة تتقاذفها عواصف الحياة ورياح الصُّدَفِ؟ أفِدْ من عقلك في صياغة أهدافك في الحياة، واحرص على حريتك في اختيار طريقك فيها واجهد في سبيل ذلك ودافع عنه.

صُغْ أهدافك في الحياة وحددها، وارسمْ نهجَك إلى هذه الأهداف واتبعه، وحاذر في هذا كله أن تكون ضيق التفكير جامد النهج، بل تَحَلَّ بالمرونة واللباقة اللتين توصلانك إلى أهدافك من خير الطرق عائدة، وأكثرها فائدة، غير مفرط في خلق قويم أو حق صحيح أو واجب أكيد، ولا متجمد على طريقة واحدة وقالب ضيق.

واعلم أن صياغة الأهداف علم وفن، وأن انتقاء الطرق الموصلة للأهداف عملية تحتاج إلى قدْرٍ كبيرٍ من ذكاءٍ وتفكيرٍ وتدبير، ثم اعلمْ أنَّ الأهداف الصحيحة لا يمكن أن تكون جامدة ولا متحجرة، وأن الطرق السليمة لا يمكن أن تكون وحيدة ولا خيالية، ولا تنسَ أنْ تعتصم في عملك هذا بالمثل الأعلى والخلُقِ القويم.

ولعلك محتج بأن صياغة الأهداف أمر صعب، وأن انتقاء الطرق إلى هذه الأهداف عمل شاق، وأنا معك في هذا الاحتجاج، لكن من عملي وعمل أمك وعمل مدرستك أن نعينك في هذا، ثم إن أهم ما يجب أن تَعيَهُ في هذا الخصوص أن الأهداف منها القريب ومنها البعيد، وأن الطرائق فيها الواضح البسيط، وفيها المعقد الغامض، وحسبك من هذا جميعه أن تعتاد تحديد هدف ورسم طريقه، والجهدَ في سبيل تحقيق هدفك بطرائق شريفة، ثم حسبك أن تذكر أن الأهداف تعلو وتهبط، وأن الطرائق تتغير وتلتوي أو تستقيم، وأن العاصم من هذا جميعه والمعين فيه كله نية حسنة وضمير حي وَخُلُق قويم.

◆ ولدي!

لو سألتني عن أهم صفة من صفات هذا العصر الذي تعيش فيه لقلت لك غير متردد إنه عصر العمل، ولو سألتني عن أهم مكتشفات هذا القرن الذي شهد مولدك، وأرجو ألا يشهد موتك، لقلت لك إنها قيمة العمل: قيمته في بناء حياة الفرد، وقيمته في بناء المجتمع، وقيمته في بناء الإنسانية، ولعلك ملاحظ أننا في زمان لم تعد للوراثة فيه قيمة، وأعني بالوراثة الأملاك أو وراثة الثروة أو وراثة المصنع أو وراثة اللقب أو غير ذلك من أشكال الوراثة الاجتماعية.

إن قيمة الإنسان في عصرنا هذا فيما يُحْسِنُ عمله، والحق أن العمل هو الطريق الأوحد لتنمية الشخصية البشرية، وصقل الطبع الإنساني، وإبراز المواهب الفردية وتمتيع الإنسان بالسعادة والرضا، فَأَوْلِ عملك المقبل جُلَّ تفكيرك وجماعَ عزمك.

فكر فيما تحب أن تكون في هذا المجتمع وحاول أن ترى طريقك إلى المهنة التي تحب أن تمتهن، وليكن اختيارك لعملك على أساس من (١) قدرتك (٢) ميولك (٣) قيمة هذا العمل لمجتمعك.

ولست أرمي أن تختار مهنتك المقبلة منذ الآن فأنا أعلم أن الوقت مازال مبكراً، وأن إمكاناتك في هذا العمر لمثل هذا الاختيار محدودة، ولكني قصدت أن أنبهك إلى هذه المشكلة وأهميتها، وأن أفتح باصرتك على الأمر منذ هذه اللحظة.

وقد تقول لي إن من المتفق عليه أن أكون مهندساً، لكني منبهك إلى أن هذا الاتفاق كان حديثَ طفولة، وأنه يَحْسُن بك أن تأخذ الأمر الآن مأخذ الجد لئلا تصدم في آمالك فيما بعد.

ومن واجبي أن أفتح بصيرتك على حقيقة هامة جداً فيما يخص عملك، إن إتقان العمل لا يمكن أن يكون صُدفةً، ولما كان إتقان العمل هو سر النجاح فيه والرضا عنه، فإن إتقانك لعملك ـ أياً كان هذا العمل ـ يقتضيك جهداً وعرقاً وتعباً وقديماً قيل إن ٩٩% من النبوغ عَرَقُ جَبينٍ، فاجهد إذن في سبيل إتقانك لعملك.

ولا تنس أن الْعَصْرَ الذي تعيش فيه عصرُ علم وثقافة وتخصص، وأن مجتمعك الذي ينتظرك لم يعد ينظر بكثير من الرضا إلى أولئك الذين لا تقوم معرفتهم بعملهم على أساس من ثقافة عامة عميقة واسعة وتخصص علمي دقيق، وإذن فلا غنى لك في عملك وإتقانك إياه عن هذا التخصص الدقيق القائم على أساس واسع من ثقافة صحيحة، وإنه لعمري أمر شاق ولذيذ.

وهنا دعني أكشف لك سراً خطراً، سراً طالما بحث الإنسان عنه بعيداً وهو في متناول يده، وأعني به سر السعادة، السعادة أيها الحبيب في القيام بالعمل الذي تحب على الوجه الأكمل وبالجهد اللازم.

حَذَارِ أنْ تظن أن السعادة تطرق باب الكسلان، أو تأتي عن طريق الأعمال السهلة أو تنبع من الأعمال الرّوْتينيَّةِ، وهكذا فإذا أردت سعادة حقيقية وجب عليك: أن تجهد في القيام بعمل محبب وعلى وجه صحيح، وبذلك فقط تكون فناناً وتكون سعيداً وتكون قبل هذا وبعده مواطناً صالحاً وإنساناً خلوقاً.

وما دام الحديث قد وصل بنا إلى الأخلاق، فلنقف عندها بعض الوقت، إنها تستحق الكثير من عنايتك وتفهمك وتدبُّرِكَ.

ميزة الإنسان الكبرى أنه يستطيع أن يكون مثالياً، ولعنة الإنسان الكبرى أن يتخلى عن مثاليته، وإني لا أغشك حين أقول لك إن المدَنِيَّةَ الحقة، وإن الثقافة الصحيحة في التقرب الدائم من المثُلِ العُليا والتطلع السَّرْمدي إلى المثَلِ الأعلى، ولعلك تعلم أن المثَلَ الأعلى هو الله عز وجل، وأنّه إذا لم يكن مفروضاً في

الإنسان أن يبلغ مرتبة الإله فإنه مفروض فيه أن يتطلع إليه دوماً، يتطلع إليه في عمله وفي علمه، في نيته وفي جهده، في سرّه وفي علنه.

وما كانت الأخلاقُ ولا يمكنُ أنْ تكونَ مجردَ قواعد وأوامر وزواجر[1]، وإنما هي قبل كل شيء عقيدة وإيمان ونيَّة وموقف، ولا تَفْهمْ من كلامي أبداً أن تستهين بالقواعد والأوامر والنواهي، ولكن افهمْ أنّ الأعمال بالنِّيّات، وأن الخطأ في طبيعة الإنسان كالصواب، وأنَّ الخلُقَ الحسنَ في سلامةِ النيةِ، وحسنِ الطوية[2] وطيب المعاملة.

وكنت قد أشرت على أختك بقاعدة تعصمها[3] من الزلل حين قلت لها، لا تفعلي في السر ما تستحين منه في العَلَنِ، وعليكَ أشير بقاعدة أخرى تُعينك إذا أضفتها إلى سابقتها على التزام الخلُق الحسنِ، ألاَ وهي محاسبة النَّفس.

حاسبْ نفسكَ، انظرْ في أعمالك وأقوالك، دقِقْ في مواقفك ودوافعك وقف من هذا كلّه موقفاً موضوعياً لا يقبلُ التبريرَ ولا يلتزم التَّزَمُّتَ[4].

عندي أن ميزة الإنسان على كل ما عداه، وأن طريق اتصاله بالله عز وجل هي قدرته على محاسبة ذاته، استطاعتُهُ أن يقول لذاته أَخْطَأْتِ، ومقدرتُهُ على أنْ ينظرَ في أعماله وأقواله فَيَنْقُدُهَا نَقْدَ المتجرِّدِ.

ولقد قال رسول الله ﷺ حين عودته من غزوة بدر «عُدْنَا من الجهادِ الأصْغرِ إلى الجهاد الأكبر» فقيل له «وما الجهادُ الأكبرُ يا رسول الله؟» قال: «جهادُ النفسِ»[5].

على أني لا أحب لك أن تقسو على نفسك فتسرف في لومها كما لا أحب لك أن تتراخى معها فتخترع لها المبرِّرَات والمسوغاتِ.

---

(١) زواجر: نواهٍ.

(٢) الطوية: الضمير.

(٣) عصم: حفظ.

(٤) التزمت: التشدد.

(٥) «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب» رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر.

وفي حديثي إليك عن الأخلاق أريدك على أنْ تفهم أني أستنكر أشدَّ الاستنكارِ تفريق بعض الناس بين الأخلاق العامة والأخلاق الخاصة، إني مؤمن أنهما وحدة لا تتجزأ، فلست أقبل إطلاقاً أن يكون الإنسان كاذباً ووطنياً في آن معاً، ولست أقبل أن يكون الإنسان ممن يقدمون على الاعتداء على الأعراض وفاعل خير.

ولست أنسى أن أشير هاهنا إلى أن من صميم الأخلاق الفاضلة أن يتطابق قولك وعملك في حدود الاستطاعة البشرية، وأن يتوازن عدلك ورحمتك، وأن يتعاون حقك وواجبك، وأن تتناسق حريتك وحرية الآخرين وهكذا.. ثم إني أحب لك أن تميز بدقة وذكاء بين المفاهيم الأخلاقية والمفاهيم الاجتماعية.

صحيح أن الخُلُقَ القويمَ يجبُ أنْ يكون جوهرَ المفهوم الاجتماعي، ولكن هذا لا يتمُّ دوماً مع الأسف، وصحيح أن المجتمع السليم هو المجتمع الأخلاقي، ولكن الواقع يُكذِّب هذا في بعض الأحيان، ومن هنا كانت رغبتي في أن تحدِّدَ علاقتك بالمجتمع تحديداً ذكياً واعياً، لا تخضع للمجتمع خضوعاً أعمى ولا تثر عليه ثورة رعناء، اِقبلْ ما فيه من صحيح أو ما تعتقده صحيحاً، واعملْ على إصلاح ما فيه من قبيح أو ما تراه قبيحاً، وتوسلْ إلى ذلك بالموعظةِ الحسنة والقدوة الصالحة والصبر الطويل.

◆ **ابني الحبيب:**

هذا الذي قلته عن الأخلاق يوصلني إلى الإيمان، ذلك بأن الإيمانَ جوهرُ الخلُق ودافعُ العمل ومعيارُ النجاح.

وحين أحدثك عن الإيمان أقصدُ الإيمانَ بمعناه الواسع العميق، فالذي لا يؤمنُ لا يعملُ، والذي لا يؤمنُ لا ينجحُ، والذي لا يؤمنُ لا يصيبُ.

والإيمان بهذا المعنى يربط بين الإنسانِ وخالقِهِ، وبينَهُ وبينَ أهلِهِ، وبينَهُ ومجتمعه، وبينَهُ وبَني الإنسانِ.

ثم إن الإيمان بهذا المعنى يدفعُ إلى العمل، ويحفزُ إلى النجاح، ويحضُّ على الثبات ويهوِّنُ المتاعبَ ويذيبُ المصاعبَ.

وأخيراً فإن الإيمانَ بهذا المعنى يساعدُ على التسامح ويمكن من التفهم، ويقلل من الزَّللِ.

آمنْ يا بنيَّ بالمثَل الأعلى وآمنْ بوطنكَ وآمنْ بالإنسانيةِ، آمنْ بها جميعاً مجتمعة فيك، وآمنْ بذَاتِكَ في خدمتها ومن أجلها جميعاً.

آمنْ بالمثَل الأعلى دونَ تعصبٍ، وآمنْ بوطنِكَ دونَ احتقارٍ لأوطانِ الآخرين، وآمنْ بالإنسانيةِ بوصفها محبةً وتآخياً وتعاوناً، وآمنْ بنفسكَ إنساناً تخدمُ المثلَ الأعلى وتخدمُ الوطنَ وتخدمُ الإنسانيةَ فتخدمُ نفسَكَ، واذكرْ أنَّ الإنسانية المشروعةَ لا تتنافى مع الغيريةِ المقبولةِ، وأنَّ الوطنية الصحيحة هي لبٌّ الإنسانيةِ الحقَّة.

آمنْ بالإنسانِ فيك وآمنْ بالإنسانِ في غيرك، آمنْ به قاطعاً النظر عن اللونِ والعرقِ والجنس والمحتِدِ[1]، آمنْ به كائناً أخلاقياً، رِجْلاهُ على الأرض وبصرهُ إلى المثلِ الأعلى.

◆يا فِلْذَةَ الْكَبِد[2]:

ومن إيمانك هذا انطلق للإيمان بالعقلِ، العقل المطلق والعقل البشري المحدود، آمنْ بما وصل إليه هذا العقل من عِلْم ومعارف، من حضارة وثقافة، من مكتشفات ومخترعات، من نَظَرٍ وتطبيق.

آمنْ بعقلك بوصفه قَبَساً من العقل المطلق قادراً على أن يصل بك إلى مزيدٍ منَ المعرفة ومزيد من الاتساق ومزيد من الشَّغَف [3] بهذا الكون والإخلاص لهذا الإنسان.

صحيح أن العقل البشري مازال يحبو ولكنه سيقف على قدميه وسيركض وقد يرتفع في أجواء الفضاء نحو السماوات العلى.

---

(١) المَحتِد: الأصل.

(٢) فلذة: قطعة (من اللحم أو المعدن).فلذة الكبد: الولد.

(٣) الشغف: الحب والتعلق.

وصحيح أن علم البشر مازال في بَوَاكيره لكنه في تقدم متسارع وتكامل متزايد.

لكنْ من واجبك أن تضبط المعرفة بالخلُق وأن توجّه العلْمَ بالحكْمة.

ثم لا تنسَ أن العلم الصحيح موقف قبل أن يكون معرفة، فأنا أريد أن لا تتخذ من مشاكلك اليومية وقضاياك الكبرى موقفاً علمياً، يتسمُ بحبِّ الحكمة أولاً، وبالتواضع ثانياً، وبالرضوخ للحق ثالثاً.

أريدك أن تتخذ من هذا الكون وما فيه ومن فيه موقف المختبر المتعلم الباحث عن الحقيقة، القانع بها، العامل على نشرها.

واذكرْ أنَّ خيرَ العلماء المتواضع، وأن الذي يعرف أنه لا يعرف إنما يعرف كثيراً، وهو في كل الأحوال على الطريق الصحيح إلى المعرفة.

◆ وَلَدي العَزيز:

كان الذي حدثتك عنه حتى الآن أموراً مجردة [(١)]، أموراً أقرب إلى مطالب النفس منها إلى مطالب الجسد، لكنني مؤمن بالقول المأثور: «إن لنفسك عليك حقاً، وإن لجسدك عليك حقاً [(٢)]» فلأحدثك إذن عن بعض أمور الجسد.

صحتك يا بني شرط رئيسي لتحقيق جميع ما حدثتك عنه ودعوتك إليه حتى الآن: المريض يعجزُ عن تحقيق أهدافه، والعليلُ قاصر عن العمل، وطلب العلم جهد ومشقة، والتزام أوامر الأخلاق ونواهيها يكلف الجسد أعباءِ جِسَاماً، وخدمة الوطن والإنسانية تقتضي الجسم عرقاً وكدّاً[(٣)]، فاحرصْ على التمتع بالصحة الجيدة.

وصدقني حين أقولُ لك إني لم أسمعْ في الأقوال المأثورة أجمل من القول

---

(١) مجرد: ما يدرك بالذهن دون الحواس.

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضي الله عنهما قال: دخل علي رسول الله ﷺ فقال: «ألم أخبر أنك تقوم الليل، وتصوم النهار»؟ قلت بلى، قال: «فلا تفعل، قم ونم وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزَوْرك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً» الحديث رواه البخاري واللفظ له ومسلم وغيرهما.

(٣) الكد: التعب.

بأن (الصحة تاجٌ على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى) ونصيحتي إليك أن تتلمس هذا التّاج بين حينٍ وآخر، وفي سنِّ الشباب بالذات.

احرصْ على صحتك منذُ هذا السن وَاعْنَ بها العناية الكافية والمناسبة، وتطَّلعْ منذُ الآن إلى ما بعد الأربعين وما تجرُّه الأربعون من مشاكل صحية.

ولو سألتني عن سر الصحة الطيبة لقلت لك: إنّه الاعتدال والقصد، الاعتدال في الطعام والشراب، والاعتدال في السهر والجهد والتوفيق بين مطالب الجسد ومطالب النفس بحيث لا يطغى جانب على جانب.

ولا يفوتني أنْ أشيرَ هنا إلى أمور هامة جداً في حفظ الصحة، ألا وهي اللهوُ واللعبُ والاستِجمامُ والراحةُ والرياضةُ والهواياتُ.

وإذا كنتُ لا أحبُّ أنْ أطيلَ عليك هذا الحديث عن هذه الأمور فإني على وجه التأكيد أحب أن أشير إلى المفهوم الصحيح للاستجمام، فالاستجمام ليس كسلاً ولا تسكعاً، وإنما هو لعب منظم مفيد ولهو منشطٌ بريءٌ، ورياضة منعشةٌ مجددة للعزْم، فهل في حياتك ما يكفي من هذا؟!

الْعبْ يا بنيَّ، الِعبْ في كلِّ عمرٍ واستجمَّ في كل مناسبة، وجدد قواك بالرياضة وإلا فإنَّ هذه الآلةَ الرائعةَ المسماة جسدك ستَفْنى وتختلُّ.

أنا أعلم أن مجتمعنا يفتقد مجالات اللعب واللهو والاستجمام، ولذلك فنصيحتي أن تخلق هذه المجالات لنفسك وأن تتعاون مع غيرك في إيجادها. أما الهوايات فأنا أعرف أن لك بعضها من مثل القراءة وجمع الطوابع، ولكن دعني أقول لك إنهما ليسا كافيين، إنهما بعيدان عن صفة الرياضة وهذا نقص كبير فيهما، لا تفهم من كلامي أني أدعوك لتركهما ولكني أدعوك لتكملتهما بهوايات رياضية منشطة.

هذا ولا تنسَ أنْ تتعلمَ كيف تسترخي، كيف تتخلصُ من توترك العصبي وتوترك الجسدي، إنَّ فنَّ الاسترخاءِ يحتلُّ اليوم في الطبِّ النفسي مكاناً هاماً جداً.

ولا تنس أن تكون مَرِحاً متفائلاً، فالمَرَحُ علاج للهموم والتفاؤل تعويذة

ضدها، وحاذر أن تخلط بين المرح والتَّهْريج[1] وبين التفاؤل والعباطة.

❖ ايه بُنيَّ:

ومن حقك علي أن أعرض في حديثي الطويل هذا إليك لمسألة المال وما يتصل بها من مسألة النجاح والفشل.

المال في الأصل يا بني وسيلة للتعامل بين الناس وتسهيل حصولهم على حاجاتهم دون اللجوء إلى نظام المقايضة الذي كان ومازال سائداً في المجتمعات البدائية، إذا كان المال قد أصبح عند بعض الناس غاية يبتغونها من أجل ذاتها، وإذا كانت بعض المجتمعات قد جعلت من المال رمز القوة ومدار الفخار فإن أمثال هذه المجتمعات وأولئك الناس مرضى، ما في ذلك شك.

هذه واحدة، والثانية هي أن الغني في الأصل يحمل معنى الاستغناء عن الناس وعدم الحاجة إليهم، وبديهي أن المقصود بالاستغناء هنا هو عدم الحاجة إلى السؤال وليس عدم الحاجة إلى تبادل الخِدْمَات والعون.

وإذن فأنت غني حين تحصل على كفايتك، وأنت غني حين تستغني عن سؤال الناس، لكن مسألة الكفاية هذه مسألة نسبية فردية متطورة، فقد لا يكفيك إلا ثلاثة أضعاف ما يكفي غيرك، وقد لا يكفي غيرك إلا مئة ضعف ما يكفيك، ولذلك قيل: إن القناعة كنز لا يفنى! على ألا تفهم من القناعة الخمول والكسل والتقاعس، وإنما تحديد الحاجات والتمييز فيها بين ما هو أساسي ضروري وما هو أقرب إلى الفخفخة[2] والطنطنة منه إلى الحاجة الحقيقية.

على أني أحبُّ أن لا تسيء فهمي، فتعتقد أني أريدك أن تحرمَ نفسك وعيالك الكثير من الرفاه، لكن بعض الرفاه مشروع ومفيد ولازم، وبعضه سفهٌ وخيلاءُ وفراغُ عقْلٍ، فاحرصْ على الرفاهِ المفيدِ المشروعِ ودعْ سفاسف[3] الأمور، وهكذا فأنا لا أدعوك للزهد أو الكسل أو (الدروشة) وإنما أدعوك إلى القاعدة القرآنية

---

(١) التهريج: التشويش والاضطراب.

(٢) فخفخة: الافتخار من دون حق، وعاش عيشة فخفخة: عاش حياة مترفة.

(٣) سفاسف الأمور: الأمور التافهة.

الصحيحة التي تدعوك إلى أن لا تبسط يدك كل البسط ولا تغللها إلى العنق[1]. أدعوك إلى موقف منزه عن كل من الإفراط والتفريط بعيد عن البخل والإسراف.

◆ أيْ وَلَدِي:

وبهذه المناسبة أحبُّ أن أعْرِضَ لمظهرك ووجوب حرصك عليه بعد أن أشرت في الفِقراتِ السابقة إلى مخبرك ووجوب تنقيتك إياه من الشوائب.

ليكن حرصكَ على مظهرِكَ نابعاً من ينابيعَ ثلاثة هي بالتحديد:

١ ـ النظافة و٢ ـ البساطة و٣ ـ الرجولة. وصدقني حين أقول لك: إن النظافة المعقولة غير المهملة ولا المبالغ فيها هي أساس حسن المظهر، وتأكد من أن الجمال في البساطة، وآمن بأن رجولتك خير ما يُزَيِّنُكَ، فابتعدْ إذن عن كل ما ينقص رجولتك واحرص على بساطة المظهر ونظافته، وتأكد أنك بذلك واصل إلى الأناقة الحقة.

وبالمناسبة فإن هذه الأمور على صلة وثيقة بنجاحك وفشلك في الحياة، وحصولك على المركز اللائق بك وبأمانيك ومطامحك.

وحديث النجاح والفشل يقتضي تحديد معناهما الدقيق لئلا تلتبس عليك الأمور وتَسْتَبْهِم عليك الطريق.

بعض الناس يقيسون نجاحهم، أو نجاح غيرهم، بما يملكون من مال أو يصيبون من جاه أو يشغلون من مركز أو يحملون من لقب.

ولكني أجد للأمر معنى آخر ومدلولاً مختلفاً، فاسمعْ عني ما أرى في النجاح والفشل! أنت ناجح بقدر ما أنت راض عما حققت من أهدافك، فإذا كنت قد أحسنت تحديد أهدافك، وعُنيْتَ بانتقاء الوسائل الصحيحة الموصلة إليها وحرصت على ما سبق أن أشرت إليه من وجوب توفر المرونَةِ والسَّعَةِ في هذه الوسائل. وتلك الأهداف، ثم بذلْتَ ما استطعْتَ من جهد فأنت ناجح وإن لم

---

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ الآية (٢٩) من سورة الإسراء.

تنجحْ، ذلك لأنك ترضى عن نفسك وعملك وجهدك وفي هذا الرضا ـ كما أعتقد ـ غاية النجاح على أني أزعم إذا قمت بما أشرت إليه من أعمال وعلى النحو الذي وصفته لك فإن فرص الفشل تقل إلى حد بعيد.

وأيًّامًا كان فإني أحبُّ أن يستقرَّ في ذهنك أن النجاح والفشل موقفان وصفتان عاطفيتان وأمران يتصلان أوثق الصلة بشخصية الإنسان.

ثم من ذا الذي يستطيع القول بأن الفشل مضر؟!

الحق أن الفشل في حالة واحدة وهي حالة ذوي النفوس الخائرة والهمم المتقاعسة، أما ذوو النفوس الكبيرة والهمم العالية فإن شيئاً من فشل مفيد لهم لأنه يشحذُ هِمَمَهم، ويحفزُ قدراتهم ويتحداهم فيندفعون إلى أهدافهم لا يَلْوُون على شيء.

ومهما يكن من أمر فاذكرْ أنَّ اللذةَ في الجهد، وأن السَّعادة في التعب، وأنَّ هذه السَّعادة ما كانت قط من نصيب الْكَسْلانَ، وأنَّ النجاح الهين نجاح محتقر حتى من صاحبه.

❖ بنيَّ الحبيب:

كلمةٌ أخيرةٌ عن أمرٍ هام ٍجداً، أمرٍ يتصلُ بجسدك كما يتصل بنفسك، ويتصل بفرديتك كما يتصل بمجتمعك، ويتصل بحيوانيتك كما يتصل بإنسانيتك، وأعني به مسألة الجنس، وما يتصل بها من حب وزواج وتكوين عائلة، فاستمع إليَّ أحدثك عنها جميعاً حديث الأب الشفيق والناصح الخبير بحكم سني واختصاصي أحبُّ لك أن تعلَمَ أولاً: أنَّ الجنسَ حاجةٌ من حاجاتِ الجسدِ تماماً كالحاجةِ إلى الطعام والشراب والراحة وما إليها من حاجات، لكن بين الجنس وسواه من حاجات الجسد فوارق مهمة يجب أن لا تغيب عن بالك، منها أن الجنس أضعف نسبياً، وكل الدراسات العلمية التي أجريت على هذا الموضوع تؤكد ذلك، ويكفي لكي تتأكد مما أقول: أن تذكر أن الجائع أو الْعَطِش أو التَّعِبَ لا يشعرون بالحاجة الجنسية، ولذلك فلا صحة لما يزعمه بعض العلماء وكثير من العوام وجمهرة من المراهقين المغَرَّرِ بهم أن الميل الجنسي أصل وأساس، وأن كل الميول الأخرى تسير في ركابه.

وأحبُّك أنْ تعرفَ ثانياً: أنَّ الطبيعة بتنظيمها المحكم تستطيع أن تتكفل بالميل الجنسي وإرضائه بطرق طبيعية بريئة سليمة بحيث يصل الشاب أو الفتاة ليلة الزفاف بريئين طاهرين نقيين، ولا ضرورة إطلاقاً لما يزعم من ضرورة التجربة الجنسية للزواج السعيد.

وأحبُّك أنْ تعرف ثالثاً أنَّ ميزة الإنسان عن غيره من الحيوانات أنه يستطيع ـ إذا شاء وتوفرت له التربية الطيبة والظروف المناسبة ـ أن يضع الجنس في خدمة الحب وليس العكس، وهذا أمر في منتهى الخطورة والأهمية، إن الذي لا يفعل ذلكِ قَمينٌ[1] بأن ينقلب إلى حيوان صرف وأعيذك من أن تَطْغَى حيوانيتك على إنسانيتك.

وأحبُّك أنْ تعرفَ رابعاً: أنَّ الميلَ الجنسيَّ ممكن التَّصعيد[2]، أي أن في إمكان الفنون والرياضة والهوايات أن ترفع من الصفة الحيوانية للجنس إلى مستوى الصفة الإنسانية المثالية، إن الشعر والأدب والرسم والتصوير والرياضة تستطيع أن ترفع ميلك الجنسي من مستوى الغريزة الحيوانية إلى مستوى المثل الأعلى الإنساني[3].

وأرجو ألا تفهم عني أني أدعوك لكبت ميولك الجنسية والقضاء على حنينك إلى الجنس الآخر، ولكني أدعوك فقط أن تحتفظ لزوجك بما تريدها أن تحتفظ به لك، وهذا أمر ممكن ومفيد بل وضروري.

واسمحْ لي أنْ أقفَ معكِ وقْفَةً قصيرةً عند الحبِّ، وأنا أعلمُ علْمَ اليقين أن حديثَ الحبِّ قريبٌ إلى نفوس المراهقين وإن كان جديراً بأن يخيف بعضهم، وأنا أعلم بعد ذلك أنك خجول تستحي من مثل هذا الحديث، لكني أعتقد جازماً أنَّ من واجبي أنْ أحدثَكَ عن هذا الحب الذي قيل فيه أكثر مما يجب وقيل ما لا يجب.

مرة أخرى أنا أؤمنُ أنَّ من حقّكَ أن تُحِبَّ وأنْ تُحَبَّ، وأنا أعلم علم اليقين أنك باحث يوماً عن حب يختلف عن حب أمك وأبيك وأُختَيْكَ لَكَ، وأنك مشوق

---

(١) قمين: جدير.

(٢) التصعيد: الارتقاء.

(٣) الصوم أيضاً فهو وقاية من جموح الميل الجنسي كما ورد في حديث الرسول ﷺ مخاطباً الشباب «...فمن لم يستطعْ، فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

إلى حب يرضي رجولتك ويكمل نفسك وينتهي بك إلى ما يجب أن تنتهي إليه من تكوين أسرة تقاسمك أعباءها فتاة أحلامك ويزينها لكما بنون وبنات.

ولكني أريد أن أقول لك إن الحب شيء مقدس، إنَّه الجزء الذي وهبه الله للإنسان من ذاته العلية، ذلك بأن الله محبة، فلا تعبث بالحب ولا تَلْهُ ولا تَسْتَعْجِلْهُ ولا تخشَهُ، ولا تنسَ أنّه مسؤولية كبرى نحو ذاتك ونحو شريكك ونحو أولادك، ثم نحوَ مجتمعك وإنسانيتك.

ثم تأكدْ أنَّ الحبَّ الذي سيكتب له أن يعيشَ ويزدهرَ إنَّما هو الحب الصحيح، تأكد أن الحب الذي سيكتب له أن يعيش ويزدهر إنما هو الحب الذي يأتلف فيه العقلُ بالعاطفةِ والذكاءُ بالإرادةِ، والفهمُ بالاحترام، وأما ما عدا ذلك فنزوات عابرة قد تُخلِّف من الحسراتِ أكثر مما تتركه من المسرَّات، وشهوة خطيرة قد تكون لها من النتائج ما ليس بحسبانِ الشَّباب الجموح.[1]

وغاية الحب لا يمكن إلا أن تكون الزواج، الزواج العاقل المتكافئ القائم على أساس من إدراك وعاطفة وإرادة.

والزواج يا بني مسؤولية خطيرة: مسؤولية نحو ذاتك ومسؤولية نحو زوجك ومسؤولية نحو أبنائك ثم مسؤولية نحو مجتمعك وإنسانيتك فانظر من تتزوج وكيف تتزوج ومتى تتزوج؟

على أني مريدك أن تفهم أن نجاح زواجك، من عملك أنت قبل كل إنسان، ثم من عمل شريكك وظروفك، فإذا أردت لزواجك أن ينجح فاجهدْ في سبيل ذلك واذكرْ بعد هذا أن الزواج شركة، وأن الزواج حب، وأن الزواج تدبير وتفكير، وأن الزواج عمل دائب صابر على الفهم والتفهم والتفاهم، فإذا تمَّ كلٌّ هذا من جانبك فتَوكَّلْ على الله.

❖ **بُنيَّ:**

إنَّ المرأةَ التي سوف تشاركك حياتَكَ مخلوقٌ من نوعٍ خاص مختلفٍ عنكَ

---

(١) الجموح: الإنسان لا يزال أسير غرائزه وأطماعه.

بعضَ الشيء، متساوٍ معكَ في الكرامةِ الإنسانيةِ وفي الحقوقِ والواجباتِ فلا تغفلْ عن ذلك كلِّه لحظةً واحدة.

ولستُ أحبُّ لك أن تعتقد ثانية واحدة بما يزعمه البعضُ من أنَّ الزواجَ شرٌّ لا بد منه، بل أؤكدُ لك أنَّ إنسانيّتَكَ لا تكمل إلا بزواجك، وأنَّ الأبوةَ خيرُ متعةٍ في الحياةِ، وإنَّ الزوجية هي بداية الْغَيْرِيَّةِ[1]، وإن الإنسان الذي لا يعيش لسواه، لبيته، لعائلته، لزوجه وأولاده إنسان ناقص الإنسانية.

وما دام ذلك كذلك، فإن من واجبك أن تَفهم شريكك وأن تحبه وأن تعطف عليه، وأن تشعر معه، وأن تعمل على إسعاده. وإذا كان بديهياً أن يبادلك حباً بحب وعطفاً بعطف فضروري أن تقوم أنت بما عليك، وأن تترك له أن يقوم هو بما عليه.

❖ وبعدُ أيُّها الولدُ الحبيبُ:

لقدْ أطلْتُ عليك، ولكنني أحببت أن أحدثك عن كل ما اعتقدْتُ أنَّ من واجبي أن أبسطه لك وأن أبصرك به، وإني لأعلم علم اليقين أن حياتك ملكك، وأنك أنت الذي ستحياها وبطريقتك، ولذاتك فما أردت قط أن أفرض عليك مفاهيمي وطريقة تفكيري ونمط حياتي، معاذ الله.

ولكني أعتقدُ أن من واجبي أن أضع خبرتي[2] تحت تصرفك، وأن أنفض بين يديك آرائي ونظراتي، فانظرْ فيها وأعملْ عقلك[3] وانتق لنفسك ما يتسق مع تفكيرك أنت وطريقتك أنت الخاصة في الحياة.

متعك الله بالسعادة، وجنبك مزالِقَ الحياة، وَعَصَمَكَ من الزلَلَ، وجعلك عضواً نافعاً لمجتمعك، لائقاً بإنسانيتك.

---

(١) غيرية: مصدر صناعي: تفضيل الغير على الذات عكسها الأنانية.

(٢) الدكتور فاخر عاقل جمع بين طرفي التربية النظرية والتطبيقية فهو متخصص في هذا العلم ويحمل فيه شهادة عالية كما أنه لديه تجربة عملية في تربية طلابه في أكثر من جامعة في البلاد العربية وهو بالإضافة إلى ذلك أب لعدة أولاد ذكور وإناث وقد رباهم تربية أهلتهم ليحملوا الشهادات العالية ويكون لهم شأن في المجتمع.

(٣) أعمل عقلك: أي فكر.

الطريق التي مشيت عليها

كتب عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري[1] رسائل إلى ولده[2] جاء في الرسالة الأولى منها:

ولدي: كم من مرة نويت أن أواصل الكتابة لك فثناني تصور قائم وصوت داخلي يقول لي: أوقف النزيف النفسي واحجب في شيخوختك تجربتك وأبق عليها لنفسك فلا سامع ولا مجيب!!

فهل في إمكاني أن أستجيب للنداء وأتراجع عنك وعن رفقاء دربك؟ أبداً أكون قد أذنبت وعققت وجودي فيكم وطرحته في العراء؟؟ إذاً أعيروني سمعكم وبصركم وكل إمكاناتكم العقلية والفكرية، وأصغوا إلي فإني بهذه الرسالة أضع قدمي على آخر الطريق التي مشيت عليها أو قريباً من آخرها أتلفت هنا وهناك أستوحي من الذاكرة ومن المواقف ومن الناس ومن الشيء ونقيضه رسالتي هذه، فإذا وقفتم معها واحداً واحداً فهي حجتي عليكم، وهي ملامتي لكم إذا أنتم عققتموها أو تعاليتم عليها.

جالسوني فيها وَعُوا مكاني مِنْ مكانكم ودوري مع دوركم فأنا الأب وأنتم الأبناء، وهو دور أسبغته علي تجربة ستين عاماً... أنا لن أعنفكم في هذه الرسالة ولن أقاضيكم ولن أصدر حكمي على واحد منكم، أنتم أبرياء عندي براءة تامة،

---

(١) عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري: كاتب سعودي له عدة مؤلفات منها: ١ـ في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء ٢ـ حتى لا يصبنا الدوار ٣ ـ رسائل إلى ولدي (منازل الأحلام الجميلة).

(٢) رسائل إلى ولدي (منازل الأحلام الجميلة). عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري الدار العالمية للنشر ـ ادمنتون ـ كامبرج ـ لندن ط١ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م وهو رسائل إلى ولده (الطريق التي مشيت عليها) هي الرسالة الأولى صفحة ١٧ اقتبسنا منها مقطفات.

ثيابكم نظيفة ليس فيها بقع سود، وليس لي عليكم مَأْخَذٌ ألومكم عليه، أنتم الآن غير مسؤولين ولكن الأيام تَحْمِلُكُمْ إلى المسؤولية في أنفسكم وفي أهلكم وفي مجتمعكم.

وفي ظني أن لكل منكم تصوراته وآماله وطموحه، لا يمكن لكم أن تكونوا في مستوى واحد، لكل منكم ذهنه وعقله وتفكيره ومفهومه، لكل منكم رؤاه وأحلامه، ولكل منكم حاشيته الداخلية والخارجية، فيكم تتفاعل ردود الأفعال وأقوال ومكاسب تصعد إليكم أو تنزلون إليها، تسعون لها أو تسعى لكم، تقابلكم في مفترق الطرق أو على قارعة الطريق.

هذه الحالة أو هذا الواقع الطبيعي هل لي أن أقف بكم عنده نسمع صداه في مستقبلكم، فهو صدى لم تدخلكم فيه التجربة حتى الآن ولم تمارسوه في حياتكم اليومية مع عمرو أو زيد من الناس لكنه صدى علق بتجربة أقرب الناس إليكم وأصدقهم معكم وأكثرهم حباً لكم وخوفاً عليكم، إذا لم تصدقوني، وإذا لم تفهموني، فإلى أين أنتم ذاهبون؟ وعنذ من تجدون مشاعري وعواطفي التي أَخْلَقَت[1] عندي كل شيء لا يمتّ[2] إلى الحقيقة بصلة...؟

أيمكن لي وأنا أسجل لكم هنا وثيقة ليست من ترف الكلام ولكنها حشاشة[3] نفسي تمشي إليكم في وله أم الفطيم على صغيرها، أقول: أيمكن لي أن أصوغ لكم من عواطفي وتجربتي وتفكيري ملابس تعطيكم من دفء روحي وخفقات قلبي أرق العواطف وأدق ما يكون التجرد معكم؟

سأحاول إن استطعت، فهل من الممكن أن تستطيعوا أنتم؟ أن تقفوا معي في حال من اليقظة العقلية والفكرية وأن يكون وقوفكم في دائرة حولي لا مدخل فيها لغريب؟

التصقوا بي فقد كبرتُ، وكبرتْ هواجسي مع اهتماماتي بكم أكثر فأكثر،

---

(١) أخلقت: أبلت أو أنهت.

(٢) مت إليه: اتصل به.

(٣) حشاشة: روح القلب ورمق الحياة وحشاشة نفسي: بقية روحي وما بقي لي من الحياة.

وصارت تشكل في ذهني مخاوف عليكم قد تفرغكم من محتواكم ومن قوتكم وعندئذ يصيبكم الفشل والضياع.

ما كنت أخاف عليكم في طفولتكم وفي صباكم كما أخاف عليكم اليوم وأنتم على أبواب المسؤولية العامة.

مشكلة الإنسان أنه يكابد في تطوره كما يعاني في هبوطه الذهني والعقلي، ولكن المكابدة في اتجاه النمو والارتفاع حظ كبير يساعد على تخفيف المشكلة، ويصوغ لها في الذهن معاني جديدة تذود[1] عنه في صراعه مع الحياة الكثير الكثير من المواقف الحرجة والمؤذية، وبالعكس فإن التزحلق في منخفضات النفس والعقل والتفكير مسار محدودب معوج لن يستطيع الإنسان أن يستوي عليه أو أن يقبض الثمن من عرقه الضائع....

أنتم اليوم تدخلون الحياة من أخطر أبوابها فهل يقدر لرسالتي هذه عندكم مكان خالد لا يموت ولا يعلوه الصدأ؟ آمل ذلك ما دام واحد منكم حياً يحتضن في قلبه أو في ملفه الخاص خفقات قلبي فيها، وإن كنت لم أعش هذه التجربة التي أعيشها معكم الآن وآملها فيكم.

لم يكتب لي أبي شيئاً عن تجربته ولم يعلق بذهني عنه كلمة واحدة، لم أعرف انتقال التجربة فيما بين الأب وابنه في تلاحم كالذي أسعى إليه معكم.

مات أبي وعمري خمس سنوات لم أجد من يهتم بي أو يكتب لي أو يوجهني أو يخاف علي، ولكن صراعات المجتمع الصغير والبدائي أخذتنا إلى مسارها فعلمتنا بألوانها المختلفة وصورها المتشكلة ومواقفها المتباينة أن لا منجاة لنا من السقوط في المهلكة إلا من خلال تنمية الوعي الذاتي وصون الكرامة من وقاحة النفس أو وقاحة المجتمع الذي يريد، أو تريد فئة منه أن تخضعنا للأهواء والنزوات.....

◆ **ولدي:**

أنا ممن يؤمن كل الإيمان بأن الإنسان مهما حاول أن يقرأ كتاب تجربة غير

---

(١) تذود عنه: تدافع عنه.

تجربته، لا يمكن أن يحول تجربة الآخرين إلى تجربة خاصة به لكنني أرغب إليكم أن تقرؤوا في كتابي الخاص وجوداً روحياً لا يتبدل ولا يتزعزع وقد لا يتلون ولا يسهل على الإنسان المتواضع العارف لقدره وحجمه أن يعرضه للشك أو التبدد والضياع، أعني بذلك العلاقة بين الإنسان وربه وما سوى ذلك خاضع لاعتبار خلقي مسلكي وفكري إلى غير ذلك......

وحيث إن هذه الحضارة المعاصرة وهذه المفاجآت العلمية الكبرى قد هزت ضمير الإنسان هزاً عنيفاً، وأحدثت لدى الأكثرية نوعاً من الارتباك والحيرة بل والإلحاد والتفسخ، لا بد لنا من أن نعي ما في هذه الحضارة من حقائق علمية فنجادلها ونحاكيها ما أمكننا ذلك وفي الوقت نفسه نقف من سلبياتها ومن تربتها القاحلة الميتة والرافضة للحياة موقفاً صلباً وواعياً وحياً، يرفض أن تكون الحياة مجرد وجود عبثي... حماك الله يا ولدي وحمانا من الغرق[1].



---

(١) هذه مقاطع من الرسالة الأولى وقد ضم الكتاب (منازل الأحلام الجميلة) ثمانياً وثلاثين رسالة في /٤١٢/ صفحة تحدث في العديد منها عن تجربته في الحياة وأفكاره.

المصادر والمراجع

١ ـ أروع ما قيل من الوصايا ـ إميل ناصيف. دار الجيل ـ بيروت ـ .

٢ ـ الأطفال بهجة الحياة. هشام عبد الرزاق الحمصي ـ دار الكلم الطيب ـ دمشق ـ /١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م.

٣ ـ إنباء الأبناء بأطيب الأنباء. شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي ـ دار التراث بطنطا مصر ـ /١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م.

٤ ـ جواهر الأدب. السيد أحمد الهاشمي، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت. /١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥ ـ رسائل الآباء إلى الأولاد (من الأدبين العربي والغربي) إيفان جونس. ت مجموعة من المترجمين مكتبة النهضة . بغداد. /١٩٦٣م.

٦ ـ رسائل إلى ولدي خالد. البدوي الملثم ـ سلسة اقرأ رقم ٣٢٩ ـ دار المعارف ـ مصر.

٧ ـ رسائل إلى ولدي (منازل الأحلام الجميلة). عبد العزيز عبد المحسن التويجري ط١ لندن. / ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٨ ـ الطفل العربي والمستقبل: مجموعة من المؤلفين كتاب العربي رقم (٢٣). / ١٩٨٩م.

٩ ـ لفتة الكبد في نصيحة الولد: الإمام ابن الجوزي. المكتب الإسلامي. /١٤٠٩هـ /١٩٨٨م.

١٠ ـ من مشاعر أب في رسائل حرّى. الدكتور إبراهيم الجوير كتيب المجلة العربية رقم (١١٤) الرياض./ ٢٠٠٦م.

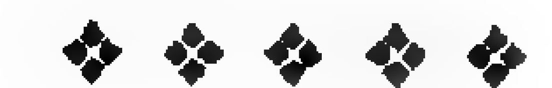
١١ ـ من والد إلى ولده. أحمد حافظ عوض. ت سعيد المقداد. مؤسسة

الوحدة دمشق. /١٩٨٦م.

١٢ ـ النصيحة الولدية. سليمان بن خلف الباجي ـ دار ابن حزم ـ بيروت. /١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

١٣ ـ هذا والدي: د. محمد سعيد رمضان البوطي ـ دار الفكر ـ دمشق ط٣. / ١٤١٦هـ /١٩٩٩م.

١٤ ـ الوصايا الخالدة: جمع وتحقيق عبد البديع صقر ومصطفى جبر ط١.سنة /١٣٨٦هـ/مطابع العروبة بقطر.



المحتوى

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس





هذا الكتاب

في هذا الكتاب (وصايا تربوية خالدة) خرجت من قلوب الآباء الصادقة ، لتقع في قلوب الأبناء البريئة .

ومما يزيد هذه الوصايا ألقاً ، أنها صدرت من أنبياء و حكماء و علماء و أدباء و مربين عبر العصور لترسم للأبناء معالم حياتهم على أساس من العلم و الإيمان و التقوى .




6210711131120

